

حقوق أهل الذمة في الفقه الإسلامي

تامر باجن أوغلو

الكتاب: حقوق أهل الذمة في الفقه الإسلامي
المؤلف: تامر باجن أوغلو
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: فقه الشيعة من القرن الثامن
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
المصدر:
ملاحظات:

حقوق أهل الذمة في الفقه الإسلامي

تامر باجن أوغلو

قبل أن أبدأ بمعالجة موضوعي أحب أن أوضح أنني أتناول هنا مكانة أهل الذمة في الفقه الإسلامي بمصادرها الأربعة من جهة؟ وظواهر تطبيق تلك القواعد والمبادئ الواردة في تلك المصادر على ساحة الواقع من جهة أخرى. علينا ألا ننسى أن ما نشاهده على ساحة الواقع قد يكون مختلفا كل الاختلاف عما تنص عليه مصادر الإسلام؟ وذلك تارة لصالح أهل الذمة وأخرى بالعكس. عندما أستعمل كلمة الشريعة أقصد بها مصادر الفقه الإسلامي؟ أي القرآن والسنة والإجماع والقياس. بعبارة أخرى ما ورد في مصادر الفقه في القضايا الحقوقية مما أورده الفقهاء في ضوء تلك المصادر. فإذا سأحاول أن أبين لكم وضع أهل الذمة في الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية كموضوع قانوني بحت. إذا خطر على بال أحدكم السؤال عن نفع وضرر هذا الموضوع؟ فيجيب عنه الأستاذ عبد الكريم زيدان في مقدمة مؤلفه أحكام الذميين والمستأمنين قائلا: فإن الشريعة الإسلامية إذا كانت بالنسبة للمسلمين ديننا وقانوننا؟ فهي بالنسبة لغير المسلمين قانون ما داموا يعيشون في دار الإسلام؟ فمن الخير لهؤلاء أن يحيطوا بهذه الأحكام فيعرفوا هذا الجانب من جوانب التشريع الإسلامي. فلدينا مصطلح آخر: دار الإسلام. ولكي نستطيع أن نوضح الأمور يترتب علينا تفسير عدد من المصطلحات الأساسية التي تساعدنا في فهم الإسلام كعقيدة جامعة لها وجهات نظر خاصة بها. إن تلك المصطلحات التي لها أهمية كبرى ونحن بصدد حقوق أهل الذمة: دار الإسلام ودار

الحرب وساكنوها؟
والأمان أو العهد؟ والجهاد.

دار الحرب ودار الإسلام
يقول القرآن: فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز
المبين. وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين
(الجناتية ٣٠؟ ٣١).

إن النظرية الإسلامية الكلاسيكية للنظم الاجتماعية (أمثال الشافعي) تقسم العالم
لقسمين. دار الإسلام ودار غير المسلمين والتي تسمى حسب الظروف بدار الحرب. أما
وقت السلم الذي تحدد شروطه من خلال عهد تسمى بدار العهد أو دار الصلح.
أولاً: دار الإسلام:

كل بلد يعتنق أهله الإسلام ويتبع شرعه؟ يعتبر دار الإسلام. أما الأمور الفرعية التي
تجعل بلدا ما دار الإسلام فليس هناك اتفاق بين الفقهاء. فيقول عبد القاهر البغدادي
إن بلدا يؤمن أهله بالإسلام ويطبق أوامره ونواهيه يعود لدار الإسلام. والشرط
الثاني عند البغدادي هو أن يشكل المسلمون فيه الأكثرية الساحقة من سكان البلد؟ مما
يعني أن الباقيين تابعون لحكم الأكثرية. أما غير المسلمين فيحتمون بحماية الدولة
التي نسميها الذمة. وهناك فقهاء آخرون يرون أنه يكفي أن يكون بوسع المسلمين القيام
بواجباتهم الدينية لتسمية البلد دار الإسلام. إذا تمكن المسلمون من القيام بصلاة
الجمعة بحرية يعتبر معيارا لكون البلد دار الإسلام أو دار الحرب. يقول الأحناف
إن اعتبار أرض دار الإسلام ينتهي عند وقوع واحد من الأحوال التالية:

- ١ - سيطرة التشريع الغير الإسلامي. عدم معاقبة الجرائم مثل الزنى والربا وشرب
المسكرات.

٢ - تواجد بلد غير إسلامي حائل

بين بلدين إسلاميين.

٣ - منع المسلمين من الإقامة فيه أو عدم إعطائهم الأمان.

غير أنه إذا رأى المسلمون أنه لم تحدث الحالات الواردة ذكرها في كتب الأحناف؟ وأنه بإمكان المسلمين القيام بواجباتهم الدينية بكل حرية؟ فالبلد يعتبر دار الإسلام

عندئذ؟ وإن لم يطبق فيه شرع الإسلام.

هذا يعني أن المقياس في وصف أرض بدار الإسلام أو دار الحرب هو الشرع الإسلامي. فإن

كانت الشريعة الإسلامية تتبع وتطبق من الدولة أو سكانها المسلمين بحرية؟ فالأرض

إذا دار الإسلام نظرياً. إلا أن بعض الفقهاء يقولون إنه من الضروري أن يكون ولي الأمر مسلماً. ذهب البعض إلى أن الأرض تسمى دار الإسلام إن كان القاضي مسلماً؟ أو

تم انتخابه من قبل المسلمين؟ وإن كان بمستطاع المسلم القيام بواجباته الدينية. هذا ما وصل إليه الفقهاء في الهند تحت الحكم البريطاني.

يقول الإمام القاساني: سمي أبو حنيفة موضعاً دار الإسلام حيث يجرى الناس على الشرع الإسلامي في معظم أحوالهم. أما بلاد الأعداء فهو يقدم بشأنها أحكاماً واضحة. إن

بلداً لم يأمن فيه المسلم يعتبر دار الأعداء أو دار الحرب؟ ولو كان المسلمون يشكلون أغلبية سكانه.

دار الحرب:

وهي الأرض التي لا سلطان للمسلمين عليها؟ وفي هذا تقول الزيدية: وأعلم أن دار الحرب

هي الدار التي شوكتها لأهل الكفر والذمة من المسلمين عليهم. وعند بعض الفقهاء: هي

الدار التي تجري عليها أحكام الإسلام؟ ولا يأمن من فيها بأمان المسلمين. أو هي

الدار التي لا سلطان علينا ولا نفوذ لأحكامه فيها بقوة الإسلام ومنعته؟ وأهل دار

الحرب هو

الحريون. والحربي لا عصمة له في نفسه ولا في ماله بالنسبة لأهل دار الإسلام. لأن العصمة في الشريعة الإسلامية تكون بأحد الأمرين: الإيمان أو الأمان؟ وليس للحربي واحد منهما.

الأمان والجهاد:

الجهاد في الفقه الإسلامي فرض على الكفاية؟ أو فرض الكفاية الذي يرفع عند قيام بعض المسلمين به عن الجميع. والجهاد تجب تأديته كل سنة مما يعني وجود حالة الحرب الدائمة بين دار الإسلام ودار الحرب التي يجوز إيقافها بمهادنة تستمر عشر سنوات على أعلى تقدير. غير أن مهادنة مثل هذه يجوز عقدها فقط إن كان المسلمون أقلية؟ أو غير قادرين على تذليل الأعداء؟ أو بحاجة إلى وقت لإعداد قوى ضاربة؟ أو إذا اقتضت ذلك مصلحة من مصالح المسلمين.

فالأمان إذا باب من أبواب الجهاد؟ وأصله قول القرآن: وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله؟ ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم لا يعلمون (التوبة ٦). أما شروط الأمان فهي: أن يكون المسلمون ضعافاً والأعداء أقوياء وذلك لكون قتال الأعداء فرضاً. بينما يحوي الأمان على تحريم القتال. ويقول الغزالي تحت باب الكف عن القتل والقتال بالأمان: إن الأمان خدعة من خدع الحرب (الوسيط). مما يفسر سبب معالجة هذا البحث عادة في كتاب الجهاد أو السير عند الفقهاء. وإن كان الأمان انقطاع الجهاد فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: من الذي يقرر إذا ما وجدت مصلحة فوجب إعطاء الأمان؟ أو

كما يقول الفقهاء أمان من يجوز؟.

الجواب: كل مسلم بل أذناهم بمقدوره إعطاء الأمان. هناك خلاف بين الفقهاء حول عدد أهل الحرب

الذين يمكن أن يمنح لهم الأمان من قبل مسلم أو مسلمين. يجوز للمسلم إعطاء الأمان فقط بإذن أمير الجهاد أو الإمام عند الشيعة. أما إعطاء الأمان فيتم إما قولاً أو تحريراً أو إشارة توهم القصد. بينما على الحربي أن يظهر موافقته على ذلك. والعبارات التي يمكن اللفظ بها هي مثل: لا تخف؟ أو لا سبيل عليك؟ أو لا بأس عليك؟ أو آمنتك؟ أو أجرتك أو أنت آمن؟ أو أنت في أمان؟ أو أنت في ذمة الإسلام؟ أو تعال. كما يجوز استعمال لغات أجنبية مثل الفارسية أو اليونانية أو النبطية مثل: مترس (لا تخف) أو ومترس: اذهب دون أن تخاف؟ أو ب U زمترس: اطلب النعمة ولا تخف! إذا قيل افتحوا الباب وأنتم آمنون فالأمان يدخل مع فتح الباب في حيز التنفيذ. أما إذا قيل افتحوا الباب فأنتم آمنون؟ فالأمان ساري المفعول قبل فتح الباب. أما ما يتعلق بمنح الأمان بالإشارة فالمقصود هو تحريك اليد مما يومئ قبول أو تبني المرء في المأمن.

لا يجوز أن يستغرق الأمان أكثر من سنة. إن غير المسلم الذي يريد الإقامة في دار الإسلام أكثر (أطول من سنة) عليه دفع الضرائب القائمة لغير المسلمين المقيمين في دار الإسلام. ويعتبر مع الوقت من أهل الذمة. مدة الأمان قد تستغرق عشر سنوات عند الحنابلة؟ وهي بنفس الوقت أقصى مدة لانقطاع الجهاد أو عقد المهادنة. يرفع الأمان إما لدى انقضاء مهلته؟ أو مغادرة دار الإسلام. وللإمام أو خليفته أن ينهي الأمان في أي وقت إذا تبين من نوايا سيئة عند المستأمن؟ أو إذا رأى أن إقامته في دار الإسلام تشكل خطراً لمصالح المسلمين. انقضاء مهلة

الأمان تأتي من ورائه

نتائج فقهية. فإذا غادر المستأمن دار الإسلام تاركاً فيها أموالاً أو عقاراً؟ فلا يحق لورثته الانتفاع بها. لأن التركة تصادرها الدولة الإسلامية. وحق التوارث يبقى قائماً إذا مات المستأمن في دار الإسلام؟ مما يعني إضفاء الضمان على أمواله أيضاً. أما الذي يدخل دار الإسلام بدون أمان فلا يتمتع بحماية القانون أبداً. للمرء أن يقتله أو يستعبده أو يغتصب أمواله؟ لأن سلوك المسلم تجاه الأجنبي ليس بموضوع الفقه أبداً. فهو كما يقول الفقهاء مباح؟ ولا يمكن أن تزول إباحته إلا بالأمان الذي يجعل نفسه وأمواله حراماً على المسلمين. بينما يجوز قتل الأجنبي المسافر بدون أمان أو استعباده؟ وملكه فيء. وإن دخل الأجنبي دار الإسلام سهواً أو ضرورة مثل غرق سفينة (أو سقوط طائرة) فللحاكم الإسلامي أن يقرر بحقه ما يشاء. إن أراد يطلق سراحه أو يستعبده أو يعدمه.

بعد أن عالجت القضايا المتعلقة بدار الإسلام والحرب والأمان؟ علينا أن نذكر شيئاً عن الجهاد بإيجاز قبل أن ندخل في موضوعنا الأساسي. فيمكن اعتبار الجهاد أهم نقطة نأخذها بعين الاعتبار في كل باب من أبواب بحثنا. إذ هو الذي يطبع طبيعة العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين في الحرب والسلام. والجهاد كما ذكرت سابقاً فرض كفاية على المسلمين كافة؟ وكاد أن يكون ركناً سادساً من أركان الدين؟ أو فرض عين. إن التطور التدريجي الذي نلاحظه في تقرير الجهاد كواجب يطلعنا على أن صاحب القرآن أبدى استعداداً في البداية للتعايش السلمي يوم كان أتباعه ضعفاء؟ الأمر الذي أدى إلى نزول آيات (مكية) يدعو محمد

أصحابه فيها إلى الصبر على
العدوان. ولكن الأمر تغير عندما استولى محمد في المدينة على نفوذ وتمكن من جمع
القبائل حوله؟ فنزلت أولا الرخصة لرد العدوان؟ تلتها الآية الآمرة بقتال المشركين
من أهل مكة (أي أعداء محمد) وإخضاعهم.
إن الجهاد شأنه شأن معظم القضايا الفقهية فكرة تطورت على مدى الأجيال. وما نقوله
هنا عنه هو ما ذهب إليه الفقهاء ابتداء من الفتوح الإسلامية؟ فقالوا إن الجهاد فرض
كفاية على كل مسلم حر بالغ صحيح العقل والجسم - أي كل مسلم توفرت له أسباب
بلوغ جيش
المجاهدين. على المسلمين مواصلة الجهاد إلى أن يدخل الناس كافة في حكم الإسلام؟
ويكون الدين كله لله (البقرة ١٩٣). ومن الضروري أن يتولى الجهاد أو يقوم عليه حاكم
مسلم أو إمام؟ ولما كان امام الشيعة مستترا فلا جهاد لهم حتى يظهر. هذا يفسر لماذا
سمى إيران الحرب التي قام بها ضد العراق بالحرب المفروضة (الحرب المحملة) وليست
جهادا. فحربهم حرب دفاع فقط سواء كانت ضد العراق أو الولايات المتحدة. إن
الخميني
هو الوحيد الذي تجرأ على تسمية الكفاح المسلح الذي قام به الشعب الإيراني ضد حكم
الشاه جهادا. هذه كانت أحداثا بالنسبة للفقهاء الشيعي.
إن شرط الجهاد يتم أداؤه إذا قام الإمام بغزوة مرة كل عام. والبعض يقول يكفي لتوفر
شرط الجهاد أن يهيب الإمام جيش الإسلام لقتال أعداء الإسلام. ومن الضروري إعلام
العدو بأن جيش الإسلام يقصد قتالهم. فيدعون إلى اعتناق الإسلام؟ فإذا أبوا فهم
مخيرون بين القتال وبين الدخول في حكم الإسلام وهم صاغرون (التوبة ٢٩). فيؤدون
الجزية

والخراج ويؤمنون على حياتهم وذويهم وأموالهم؟ ولكنهم يكونون دون المسلمين مرتبة.

والأمة يجب عليها القيام بالجهاد ضد الفرق التالية حسب الأولوية:

١ - ضد المرتدين أو أهل الردة.

٢ - ضد العصاة (أو البغاة).

٣ - ضد المشركين.

٤ - ضد أهل الكتاب.

أهل الذمة من هم؟

الذمة في اللغة هي العهد والأمان والضمان. وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين؟ وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم؟ وأصبحوا في ذمة المسلمين. وكانت تقاليد الإسلام تقضي بأنه إذا أراد المسلمون غزو إقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الإسلام؟ فمن استجاب منهم طبقت عليه أحكام المسلمين ومن امتنع فرضت عليه الجزية؟ كقول القرآن: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (التوبة ٩). وقد ورد في الحديث: يسعى بذمتهم أدناهم. وفسر الفقهاء ذمتهم بمعنى الأمان؟ وقالوا في تفسير عقد الذمة بأنه إقرار بعض الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية والالتزام بأحكام الملة. وعلى هذا يمكن القول إن عقد الذمة عقد بمقتضاه يصير غير المسلم في ذمة المسلمين أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأييد؟ وله الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام. أما الداخلون في نطاق أهل الذمة فهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذلك المجوس. وهؤلاء يجوز عقد الذمة لهم. وأما المجوس فقد ثبت جواز عقد

الذمة لهم بالسنة القولية

والفعلية. فقد قال محمد: سنوا بهم سنة أهل الكتاب.

أما المرتدون فلا يجوز لهم عقد الذمة إجماعاً. صرح بذلك الحنفية والمالكية. وعلل الحنفية ذلك بعدة أدلة منها:

١ - قوله تعالى: تقاتلونهم أو يسلمون (الفتح ٦). فقد قالوا أن هذه الآية نزلت في أهل الردة من بني حنيفة.

٢ - إن عقد الذمة في حق المرتد لا يقع وسيلة إلى الإسلام. لأن الظاهر أنه لم ينتقل عن الإسلام بعد ما عرف محاسنه؟ إلا لسوء فطرته. فيقع اليأس من صلاحه؟ فلا يكون عقد الذمة في حقه وسيلة إلى الإسلام.

٣ - المقصود من عقد الذمة ليس تحصيل المال بل التزام الحربي أحكام الإسلام فيما يرجع

إلى المعاملات. وأحكام الإسلام لازمة على المرتد؟ فلا يكون الغرض من عقد الذمة إلا الحصول على مال الجزية؟ وهذا لا يجوز! وكأن الشارح يقول إن الجزية فرضت على غير المسلمين دفعاً لهم على اعتناق الإسلام.

٤ - المرتد يستحق القتل إن لم يسلم وهذا ينافي عقد الذمة الذي يفيد العصمة للذمي.

أما غير الحنفية والمالكية فإنهم وإن لم يصرحوا بما صرح به الأحناف والمالكية؟ إلا أن أهل العلم أجمعوا على وجوب قتل المرتد. وإن اختلفوا في وجوب استنابته قبل قتله. وعقد الذمة يتنافى مع وجوب القتل؟ لأن الذمة تفيد العصمة لصاحبها. والمرتد يستحق القتل فلا يجوز عقد الذمة له.

أما غير أهل الكتاب والمجوس والمرتدين. فقد اختلف الفقهاء في جواز عقد الذمة. إن القول الراجح في هذا البحث كما يلي:

يجوز عقد الذمة لجميع أصناف غير المسلمين؟ لا فرق بين وثني عربي وغيره - وهذا مذهب

الأوزاعي ومالك؟ وظاهر مذهب الزيدية.

هنا نريد

أن ندرس الجزية وكيفية جبايتها ممن يجوز عقد الذمة له:
فرضت الشريعة الإسلامية على أهل الذمة دفع الجزية كرد فعل على عدم اعتناقهم الإسلام. يقول الماوردي إن دفع غير المسلمين الجزية كان مقابل الكف عنهم وحمائيتهم وما حظوا به من حقوق كثيرة.

ولم يكن مقدار الجزية ثابتا أو محددًا؟ بل اختلف حسب الزمان والمكان؟ فقد كانت معاهدات الصلح بين العرب والمسلمين وأهل الذمة تحدد هذا المقدار. فإن لم تحدد هذه المعاهدات فكانت العادة المتبعة فرض الجزية تبعا لمقدار دخل كل فرد. جوابا على سؤال عن مقدار الجزية المفروضة على أهل الذمة يقول أبو عبد الله: على قدر طاقتهم. حددت شروط الصلح في معظم بلاد الشام ومصر مقدار الجزية. جاء في كتاب الأموال لأبي

عبيد: عن عمر أنه ضرب الجزية على أهل الشام على أهل الذهب أربعة دنانير وأرزاق المسلمين من الحنطة مدين وثلاثة أقساط زيت. لكل إنسان كل شهر. وعلى أهل الورق (الدنانير المضروبة) أربعين درهما وخمسة عشر صاعا لكل إنسان. ومن كان من أهل مصر فأردب كل شهر لكل إنسان (الأردب: ٢٤ صاعا والصاع ٤ أمداد).
جاء في معاهدة الصلح التي عقدها عمرو بن العاص مع الروم بعد نجاحه في فتح الإسكندرية أن لأهل الذمة في مصر حرية ممارسة شعائرهم الدينية مقابل دفع دينارين كل سنة. وأعفى من الجزية النساء والأطفال والشيوخ ورجال الدين.
بعد استقرار المسلمين في الأمصار المفتوحة فكر عمر بن الخطاب في وضع نظام ثابت موحد

للجزية يتبعه العمال في سائر الأمصار؟ ويمنع اجتهاد الولاة فجعل الجزية على الرجال على

الموسر ثمانية وأربعون درهما. ولا أدري على أي أساس يدعى السيد الدكتور القرضاوي في كتابه غير المسلمين في المجتمع أن الفقراء معفون منها إعفاء تاما (المصدر نفسه ٣١). ويورد النص القرآني: لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها (الطلاق ٧) فهذا اجتهاد من عنده نرحب به؟ وإن لم يتفق مع العادة المتبعة في أخذ الجزية في تاريخ الإسلام.

فإجمالا: ليس للجزية حد معين. إنما ترجع إلى تقدير الإمام المكلف بجمعها. طريقة جمع الجزية وموعدها:

كانت الجزية تجمع مرة واحدة كل سنة بالشهور الهلالية. وكان يسمح بدفع الجزية نقدا أو عينا. وأمر عمر بن الخطاب بالتخفيف عن أهل الجزية فقال: من لم يطق الجزية فخففوا عنه؟ ومن عجز فأعينوه؟ فإننا لا نريدهم لعام أو عامين. ذكر اليعقوبي أنه كانت تختم رقاب أهل الذمة وقت جباية جزية الرؤوس ثم تكسر الخواتيم وتستبدل بشارة تعلق حول الرقبة يقدمها عامل الجزية دلالة على دفع الجزية. هناك فقهاء يذهبون إلى وجوب ختم الرقاب على الدوام. إن عمر بن الخطاب كان قد أنفذ بجمع خراج العراق فختمت

أعناق جميع الذميين وهم مائة ألف وخمسون. وليس من الثابت تماما أن الختم كان يتعلق بدفع الخراج.

بجانب الجزية توجد ضريبة أخرى يجب على أهل الذمة دفعها وهي الخراج. إنها ضريبة مالية تفرض على رقبة الأرض إذا بقيت في أيديهم؟ ويرجع التقدير إلى الإمام أيضا؟ فله أن يقاسمهم بنسبة معينة مما يخرج من الأرض كالثلث والربع مثلا. وله أن يفرض عليهم مقدارا محددًا مكيلا أو موزونا بحسب ما تطيقه الأرض. كما صنع عمر في سواد

العراق. وتسقط الجزية بالإسلام دون الخراج. فالذمي إذا أسلم لا يعفيه إسلامه من أداء الخراج؟ بل يظل عليه أيضا. ويزيد على الذمي الباقي على ديانته الأصلية أنه يدفع العشر أو نصفه عن غلة الأرض بجوار دفع الخراج عن رقبته (وذلك خلافا لأبي حنيفة).

محمد وأهل الكتاب في دولة المدينة

إن بلاغ محمد في المرحلة الأولى لنبوته يذكرنا بمنهج الوعاظ المسيحيين؟ فهو كان يعتبر نفسه من أقرب الناس من دين النصارى؟ مما يفسر بعثه بعدد من أصحابه إلى بلاد الحبشة (٦١٥) وهو تدليل على الرابطة الوثنية بينه وبين النصارى؟ يتكلم عن أحداث تهم أتباع هذا الدين مثل استشهاد النصارى في نجران (٧٨: ٨٥) أو انتصار الروم على الفرس (٥ - ٢ - ٣٠)

كان المسيحيون في المدينة أقلية ليست لها أهمية؟ بينما اليهود شكلوا جالية لها ثقلها. فحاول محمد كسب تأييدهم لأهدافه السياسية. لم يرد اليهود الاعتراف ببعثته واتهموه أنه ليس في مقدوره أن يحدثهم عما ورد في كتابهم دون أغلاط. عندما تيقن محمد

أنه لا يمكن ربح اليهود إلى جانبه أعرض عنهم وبدأ من الآن فصاعدا بتطوير ما أتى به من تعاليم.

فيما يتعلق بعلاقة محمد مع المسيحيين فإنها امتازت لمدة طويلة بالإعجاب والمسامحة. لم يكن عدد المسيحيين مما يعتد به ولم يشكلوا خطرا للإسلام. بالرغم من آيات قرآنية يهاجم فيها النصارى واليهود معا؟ غير أن الصراع الدائر بين المسلمين والنصارى لم يكن حادا إلى درجة يستحيل معها التعايش السلمي بين أتباع الديانتين. ولذا ليس من المستغرب أن يقول القرآن حتى في سورته الأخيرة: ولتجدن أشد الناس

عداوة

للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا؟ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى؟ ذلك بأنهم منكم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (المائدة ٨٢).
غير أن محمداً تحت ضغط الأحداث السياسية غير نهجه السلمي تجاه المسيحيين وتمكن

في أيامه الأخيرة من السيطرة الكاملة على شبه الجزيرة. حسب رأيه لم يكن لتوجد في شبه الجزيرة ديانة أخرى إلى جانب الإسلام. بعد القضاء على اليهود كان على الأمة بذل الجهد لمنع النصارى من النشاط التبشيري أيا كان نوعه؟ واتخاذ تدابير لكيلا يضروا بوحدة المسلمين. إن غزوة ضد نصارى شمال شبه الجزيرة سنة ٦٢٩ منيت بهزيمة شككت

محمداً في ما يجب عمله. فإننا نراه من الآن حاد الأسلوب بل مهدداً. أخيراً جاء الأمر: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهو صاغرون (التوبة ٣١). لكي يحقق أهدافه ويبين صرامته في هذا الأمر قام محمد نفسه بغزوة ظافرة ضد نصارى الشمال؟ واستولى على وادي تبوك ودومة الجندل.
إن تعامل محمد وتقريراته وأقواله وأحكامه التي تفوه بها بشأن الأمة الإسلامية في المدينة ونهج خلفائها هي الأساس الأهم لما قام به الفقهاء على مر الأيام من اجتهادات. إن تعامله مع المشركين واليهود والنصارى كان خاضعاً لظروف سياسية؟ وتغير إن جاز القول حسب هواه أو مزاجه آنذاك. فلهذا السبب يتعذر علينا أن نستنتج من تلك المعاملات المسجلة قواعد أساسية.
فيما يلي محاولة لوصف العلاقات في دولة

المدينة مع اليهود:

نرى في علاقة محمد مع اليهود في المدينة أي في العلاقات القائمة بين أمته واليهود الساكنين في المدينة مراحل متعددة وأشكال تعامل مختلفة تبعا لها. في أول عهده في المدينة حاول محمد تأسيس حلف وحدوي بين سكانها. فنرى في نص المعاهدة

المعقودة بين محمد والمسلمين من جهة؟ واليهود من جهة أخرى (والتي تدعى الموادة) أن اليهود يعتبرون جزءا من الأمة الإسلامية.

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم؟ أنهم أمة واحدة من دون الناس... انه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم. إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم (ابن هشام ج ٢ ص ١٠٦؟ ١٠٧).
إلا أن الوضع السلمي بين محمد واليهود تدهور بسرعة لأسباب دينية؟ مثل عدم استعداد اليهود للاعتراف برسالة محمد؟ ولأسباب سياسية مثل التعاون بينهم وأعداء المسلمين من مشركي مكة. مما أدى إلى:

نفي بني قينقاع.

نفهم مما ورد في سيرة ابن هشام بوضوح أن بني قينقاع لم يفرحوا بانتصار محمد على أعدائه في بدر. هذا الأمر اعتبره القرآن خيانة لما تم من عهد وميثاق: يحلفون بالله أنهم لمنكم لكنهم قوم يفرقون فنزلت الآية التي ترخص نقض المعاهدة أو الموادة؟ إذا كان هناك خوف من أن يبادر الطرف الآخر بنقضها: وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء أن الله لا يحب

الخائنين (الأنفال ٥٨). عدم مبالاة بني قينقاع بإنذارات محمد من جهة؟ والتحالف القائم بين بني قينقاع والخزرج من جهة أخرى زاد من حدة التوتر؟ فاتخذ حادث قتل فيه اليهود مسلما وسيلة لمعاقتهم. فحاصرهم رسول الله بهدف القضاء عليهم؟ غير أن عبد الله بن أبي بن سلول توسط فتمكن من إنقاذهم من يد محمد وأصحابه. كان عليهم مغادرة المدينة بأهلهم. منح لهم ثلاثة أيام لتسديد معاملاتهم المالية؟ وبعدئذ فارقوا المدينة تاركين فيها ما لهم من سلاح وأداة. إجلاء بني النضير:

خرج محمد إلى بني النضير يطلب في دية رجلين (قتيلين) من بني عامر اللذين قتلا للجوار الذي كان محمد عقد لهما. غير أنه لم يرد أن يتحدث إليهم؟ فغادر دارهم مدعيا أنهم تأمروا عليه قاصدين قتله. كان محمد حاقدا عليهم قبل هذا الحادث لعدم تأييدهم إياه في غزوة الأحد ضد مشركي مكة. استمرت محاصرتهم ١٥ يوما فأمر الرسول بقطع النخيل والتحريق فيها. فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه؟ فما بال قطع النخل وتحريقها؟ قال أهل التأويل: وقع في نفوس المسلمين من هذا الكلام شيء. وعندما رأى يهود بني النضير أن لا أمل لهم في البقاء في المدينة اتفقوا مع محمد على ترك المدينة تاركين سلاحهم فيها. إلا أنه سمح لهم أن يأخذوا أموالهم معهم خلافا لما حدث مع بني قينقاع. إهلاك بني قريظة:

لاحظ محمد أثناء غزوة الخندق أن يهود بني قريظة قدموا دعما للمشركين وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيتهم وقذف في قلوبهم الرعب؟ ففريقا تقتلون وتأسرون فريقا

(الأحزاب ٢٦). فلما كان الظهر أتى جبريل رسول الله بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة؟ عليها قطيفة من ديباج؟ فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم. فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد؟ وما رجعت الآن إلا من طلب القوم. إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة؟ فإني عامد إليهم منزل بهم. فأمر رسول الله مؤذنا فأذن في الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا بني قريظة فحاصروهم ٢٥ ليلة حتى جهدهم الحصار؟ وقذف الله في قلوبهم الرعب. فقد

نزلوا إلى تحكيم سعد بن معاذ بحقهم؟ فقال: فإني أحكم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء. كان عدد الرجال الذين ضربت أعناقهم بين ٧٠٠ و ٩٠٠ شخص.

قتلت امرأة من نسائهم وأخرى اصطفاها محمد لنفسه. والرجل الوحيد الذي نجا من حكم الإعدام اعتنق الإسلام.

الخلفاء الراشدون مع غير المسلمين
نريد هنا أن ندرس بإيجاز تعامل الخلفاء مع أهل الكتاب؟ لأن هذا العهد من تاريخ الإسلام أساس استند إليه الولاة والحكام المتأخرون. نرى في المصادر الأولى وكتب السير المتأخرة نماذج للمعاهدات المعقودة بين الولاة والحكام أو القادة مع غير المسلمين. غير أن النصوص الأصلية لها ضاعت. بالاعتماد على ما نجد بين أيدينا من تلك النصوص يمكننا فقط أن نأخذ فكرة عامة وصورة غير واضحة عما جرى حينذاك. أما الناحية

الأخرى التي تضيء على هذه المعاهدات أهمية في نظرنا فرأي الفقهاء أنها مبنية على سنة الرسول محمد.

شبه الجزيرة:

أهم نص في هذا الصدد هو المعاهدة مع أهل

نجران؟ ومعاهدة الصلح مع بني تغلب. (كتاب الخراج).

نجران: عقد أهل نجران معاهدة مع محمد جددوها مع خليفته أبي بكر (٦٣٤). غير أن عمر

نقض المعاهدة وأمر بإجلائهم. الأسباب التي تورد في المصادر الإسلامية والتي تبرر تنحيهم في نظر المسلمين تعتورها تناقضات! أهمها ما يلي:

١ - تكاثر أهل نجران جدا حتى خاف المسلمون من هجوم من الجنوب. فحماية للمسلمين من

هجوم محتمل من الجنوب قرر عمر ابعادهم.

٢ - لم يلتزموا بشروط العهد الذي عقده مع الخليفة؟ فكانت طاعتهم مشكوكا في أمرها.

غير أن كتابا بعث به عمر كتب فيه وجوب حمايتهم وذلك لعهد أعطوه من قبل المسلمين يفند صحة هذا الزعم.

نص آخر في المصادر يفيد بأن الأمر لا يتعلق إلا بقسم من أهل نجران (أي بسكان دوش)

الذين اعتنقوا المسيحية بعد ما كانوا قد اهدوا إلى الإسلام؟ فكتب عمر إلى واليه

يعلى بن أمية بأن لا يعاقب الذين ارتدوا إن عادوا إلى الإسلام وهم تائبون.

تبرير آخر لطرده المسيحيين من الحجاز واليمن يكمن في حديث نبوي مفاده: لأخرجن اليهود

والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلما (رواه مسلم). وعن عائشة قالت:

آخر ما عهد رسول الله: لا يترك بجزيرة العرب دينان (رواه أحمد). وفي مسنده عن علي

قال رسول الله: يا علي؟ إن وليت الأمر بعدي فأخرج أهل نجران من جزيرة العرب. وعن

عبد الله بن أحمد سمعت أبي يقول حديث النبي: لا يبقى دينان بجزيرة العرب.

بنو تغلب:

هذه القبيلة الشهيرة بسطوتها التزم أغلب أفرادها بالمسيحية؟ وكانت تقطن بالحدود مع

بيزنطة ومملكة الفرس في

شمال ما وراء النهر. عقد معهم عهد يختلف عن العهود الأخرى محتواه اللين حيث أبى بنو تغلب عقد عهد الذمة مع المسلمين. واكتفى المسلمون كيلا يدفعوا بهم على التحالف مع الأعداء بجمع الزكاة المضاعفة تمييزاً إياهم من المسلمين؟ ولم يدفعوا الجزية وهو صاغرون. مما يوضح أن المعاهدات من هذا القبيل مع غير المسلمين ليست خاضعة لقواعد محدودة؟ بل يتغير محتواها حسب الظرف والمكان. تارة

لصالح غير المسلمين إن كانوا أقوياء؟ وتارة لغير صالحهم إن لم يكونوا في وضع يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم. إن الذين خلفوا عمر راعوا هذا العهد مع بني تغلب. في العراق - حيرة:

سنة ٦٣٣ استسلمت حيرة للقائد الإسلامي خالد بن الوليد تحت معاهدة مفادها:

١ - لأهل حيرة دينهم؟ لهم كنائسهم وصوامعهم ومعابدهم؟ ولهم حمل الصلبان ودق النواقيس.

٢ - لا يجوز لهم أن يساعدوا أعداء المسلمين؟ ولا أن يشيروا على هؤلاء ضعف المسلمين.

٣ - عليهم بالسلوك الصالح؟ ولهم لبس ما يشاءون دون أن يتشبهوا بالمسلمين.

٤ - هم يعطون المسلمين ملجأً وسكنى؟ وعبيدهم يباعون في سوق المسلمين إن اهدوا إلى

الإسلام؟ والسعر لأصحابهم.

ما وراء النهر:

حسب البلاذري عقد أياد بن غنم مع رقا وروحا المعاهدة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم؟ منح أياد بن غنم يوم اجتمع مع أهل رقا الأمان للأفراد والضمان لأموالهم. لا تهدم كنائسهم ولا تستعمل للسكن؟ إن دفعوا الجزية المفروضة عليهم؟ وما قتلوا نفساً؟ وكفوا عن دق النواقيس؟ ولم يبنوا صوامع ومعابد؟ وما حملوا صلباناً. والله يشهد على ذلك وهو يكفي شهيداً.

بعلبك:

حسب المعاهدة التي عقدها أبو عبيدة (خالد بن الوليد) مع هذه المدينة منح سكان المدينة من الروم والفرس والعرب بالضمان لأرواحهم وأموالهم؟ كما التزم المسلمون بعدم هدم الكنائس وعدم مصادرة بيوتهم خارج المدينة. غير أن سكانها (حسب ابن العساكر) أُجبروا على التخلي عن نصف ما يملكون من بيوت وكنائس؟ ودفعت الخراج مع الجزية.

القدس:

توجد لدينا من المعاهدة المعقودة بين المسلمين والقدس نسخ مختلفة جدا (عددتها حوالي ٦٣٠) نجدها مختصرة عند اليعقوبي والمصادر المسيحية. أما النسخة الواردة في الطبري فمشكوك في أمرها؟ رغم إنها تعتبر أكثرها تفصيلا. فكما هو الحال في المعاهدات الأخرى منحت لسكان القدس حماية الدين والنفس؟ غير أنه كان عليهم أن يتعهدوا بأن لا يسكن معهم يهودي.

بلاد الفارس:

أصفهان: نقرأ في وثائق المعاهدات مع أهل أصفهان وري وجرجان أن البالغين منهم يدفعون

الجزية سنويا لوالي المدينة مباشرة؟ ويأوون المسلم المسافر ليوم وليلة؟ ويقدمون المشاة من المسلمين ومطايهم قنية سفر يوم واحد. من أهان مسلما يعاقب عقابا شديدا؟ ومن ضرب مسلما يقتل! نرى الشروط نفسها في المعاهدة مع آذربيجان.

مصر:

سنة ٦٤١ تعاقد المسلمون مع سكان القاهرة؟ يمكننا أن نختصر نص تلك المعاهدة التي نقلها الطبري في تاريخه كما يلي:

يمنح المسلمون بحماية الناس والمال؟ وكذلك الضمان لكنائسهم وصلبانهم. أهل مصر يتحملون المسؤولية عما يقترفه قطاع الطرق من جرائم. ويدفعون جزية تقدر ب ٥٠ مليون دينار. أما النوبيون فليس

لهم أن يسكنوا مع المصريين. إن تعاقد النوبيون مع المسلمين على مثل هذا فلهم ما للمصريين وعليهم ما على هؤلاء. غير أنهم يتعهدون بتزويد المسلمين بعدد معين من العبيد والخيول؟ إن أرادوا أن يسلموا من هجوم المسلمين. إذا كان هذا التعاقد قد تم بعدما وافق المصريون عليه؟ أو منح لهم عهد الذمة من قبل الخليفة عمر بعد فتح مصر عنوة؟ فهذا موضوع نقاش بين الباحثين. أخيراً أريد أن أذكر معاهدة بين عمر والمسيحيين في سورية. هذه المعاهدة اشتهرت بمعاهدة أو عهد عمر ولها أهمية كبرى إذ تحوي على شروط عمر فيما يتعلق بعلاقة المسلمين مع أهل الذمة. يقول سراج الدين الطرشوشي (١١٢٦): لما أمن عمر بن الخطاب

إيانا نحن نصارى الشام (سورية)؟ بعثنا بالكتاب الآتي:
بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب بعثنا به نحن نصارى الشام إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما أتيتم بلدنا؟ استأمننا منكم لأنفسنا ولذوينا ولأموالنا ولإخواننا في الدين؟ وتعهدهنا بألا نبني كنائس ولا صوامع ولا بيوعاً؟ ولن نعمر ما أشرف على الانهدام منها؟ ولن نصلح ما يقع منها في أحياء المسلمين. نؤوي المارة والمسافرين من المسلمين في بيوتنا؟ ونضيف المسلمين أجمعين ثلاثة أيام؟ ولن نقبل جاسوساً ولا عينا في كنائسنا ولا في دورنا؟ ولن نخفي على المسلمين ما من شأنه الإضرار بمصالحهم. لن نعلم أولادنا القرآن؟ ولن نحتفل بقداديسنا على مرأى الناس؟ ولن ننصح بذلك في عظاتنا؟ ولن نمنع أحداً من أهل ديننا من اعتناق الإسلام إن أراد. نعامل المسلمين بالبر والإحسان؟ ونقوم إذا جلسوا؟ ولن نتشبه بهم في الملبس؟ ولن

نأخذ بلسانهم؟ ولن نكني أنفسنا ولا أولادنا؟ ولن نسرج ولا نحمل سلاحا؟ ولن نضرب في خواتيمنا حروفا عربية؟ ولن نتاجر بالمسكرات؟ ونحلق مقادم رؤوسنا؟ ولن نعرض كتبنا ولا صلباننا في أماكن المسلمين.

وضع الذمي في الإسلام
خلافًا لما قال اللاهوتي المسيحي ثيودور أبو القرة (٧٥٠ - ٨٢٠) بأن الذمة تتناقض ورسالة الإسلام العالمية؟ يكتب السرخسي بأن الغرض من عقد الذمة ليس ماليا؟ بل يستهدف من ورائه إلى هدى الذمي إلى الإسلام بالمعروف كما أمرنا به القرآن (١٦: ١٢٥). يعقد عقد الذمة من قبل إمام الأمة أو خليفته إن توفرت الشروط؟ فليس لأحد

من الطرفين أن يأبى قبوله. أما الذين اعتبرهم الفقه الإسلامي ممن يجوز عقد الذمة معهم فهم كما قلنا أنفا اليهود والنصارى والمجوس والصابئة. يقول الأحناف إنه مع المشركين يجوز عقد الذمة إن لم يكونوا عربا. أما الإمام مالك فيرخص عقد الذمة حتى مع المشركين العرب؟ ولكن شريطة أن لا يكونوا من القریش. واجبات الذمي:

حسب المعاهدات المعقودة بين المسلمين وأهل الذمة يمكننا أن نستنتج أن حقوق أهل الذمة العامة؟ مثل حماية النفس والمال وحماية عقد الزواج والتجارة مضمونة؟ مما يعني أن المسلمين يتعهدون بحماية أهل الذمة والدفاع عنهم إذا تعرضوا للاعتداء. فإذا تخلت الأمة من أداء واجباتها تلك تجاه أهل الذمة؟ فليس عليهم أن يعطوا الجزية ولا الخراج. يبدو لي أن الطريقة المثلى في تعيين واجبات الذمي دراسة الأوضاع والحالات التي تؤدي إلى إلغاء عهد الذمة؟ فهي كما يلي:

١ - إذا تسلح ضد المسلمين؟ أو انتمى إلى دار

- الحرب (هذه هي الحالة الوحيدة التي قبلها أبو حنيفة سببا في سقوط عهد الذمة).
- ٢ - إباء الذمي أن يخضع لقوانين وأحكام الأمة الإسلامية.
- ٣ - إباء الذمي أن يعطي الضرائب المفروضة لأوقات معينة (الشافعي لا يقبل إلا الحالات الثلاث هذه سببا في الغاء عقد الذمة).
- ٤ - أن يفتن الذمي مسلما عن دينه
- ٥ - أن يؤوي جواسيس وعيون الأعداء والمشركين؟ وأن يدعم أعداء الإسلام بالمعلومات.
- ٦ - أن يقتل فردا من أفراد المسلمين عمدا.
- ٧ - أن يكفر بالله (يشتم) أو يسب على النبي والقرآن أو الدين الإسلامي. (لا يعترف الإمام مالك إلا بالأحوال السبعة هذه تبريرا لسقوط عهد الذمة).
- ٨ - أن يزني بامرأة مسلمة.
- ٩ - أن يقطع الطرق (الحنابلة يقبلون فقط بهذه الحالات التسع).
- هناك فقهاء آخرون يوردون التزامات إضافية لأهل الذمة أهمها:
- ١ - على أهل الذمة حمل ما يدل على ملتهم (نجمة صفراء لليهود ونجمة زرقاء للنصارى).
- ٢ - لا يجوز لهم أن يبنوا بيوتهم أعلى من بيوت المسلمين.
- ٣ - لا يجوز أن يدقوا النواقيس ويتلوا أخبار المسيح والروايات المأثورة عنه بصوت عال.
- ٤ - ليس من الجائز أن يشربوا في الطرقات خمرا؟ أو يحملوا صلبانا؟ ويجروا خنازيرهم.
- ٥ - عليهم أن يدفنوا موتاهم دون عويل.
- ٦ - ولا يجوز أن يركبوا سوى الحمار.
- هذه الأحكام يقصد من ورائها كما يقول الفقهاء تمييز أهل الذمة من المسلمين؟ أو انها وضعت دلالة على أنهم صاغرون. ولهم إن يسلموا ان أرادوا العزة في الدنيا والآخرة؟ كما يقول ابن تيمية.
- حرية الدين لأهل الذمة:
من حيث المبدأ يعلن الفقه

الإسلامي أن الإسلام لا يبالي إن كان الذمي مطيعا لدينه أو غير مطيع. فللذمي أن يعتنق الإسلام أو ديانة أخرى عند أبي حنيفة والإمام مالك. يقول فقهاء آخرون إن الذمي لا يجوز أن يترك دينه إلا إذا أراد اعتناق الإسلام؟ وإلا شأنه شأن المرتد؟ فيعاقب إما جلدا أو حبسا أو نفيا كما يقول الشافعي وابن حنبل وذلك بحجة الآية: قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم (المائدة ٦٨). وينسب لأحمد بن حنبل أن ارتداد امرء من اليهودية إلى الصابئية يختلف عن اهتداء امرء من الصابئية إلى اليهودية وكذلك يجوز ارتداده عن اليهودية إلى النصرانية؟ بينما يلقي الذمي المهتدي إلى الإسلام عقاب ما يعاقب به المسلم المرتد إذا مرق من الإسلام.

يدرس محمد أبو زهراء في مؤلفه العقوبة وضع المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام لأغراض معينة مثل الطلاق من زوج مسيحي أو الرغبة في الزواج من مسلمة. اهتداءات من هذا القبيل نراها مشكوكا في أمرها. إن ذميا اهتدى إلى الإسلام ولم يقيم بما يترتب عليه من واجبات ولا يبالي بما يقوله الإسلام؟ لا يعتبر في عداد المسلمين؟ ويجري عليه عقاب المرتد بدون هوادة ردعا من التلاعب بالإسلام وعقائده.

الطفل غير البالغ (أو غير الحالم):

هو يتبع ديانة والديه. إن كانا من ديانتين مختلفتين فأفضلهما. هذا يتناقض مع قول الفقهاء بأن الكفر ملة واحدة. إذا اهتدى أحد الأبوين إلى الإسلام فالطفل مسلم. باستثناء الأمة لذمي حر اهتدت إلى الإسلام؟ فيتبع الولد في هذا الحال دين أبيه؟ غير أن الزواج يلغى حفظا

لشرف المسلمة.

اللقيط:

إذا وجد طفل في بلد إسلامي يعتبر مسلماً؟ أو ينسب إلى أهل الذمة إذا وجد في محل غير مسكون من المسلمين. وإذا وجد بمقربة من صومعة أو معبد يهودي في قرية سكانها غير المسلمين فيعود إلى ديانة الذميين عند أبي حنيفة والشافعي (الأحكام الشرعية في الأحكام الشخصية للأسرة الإسلامية بيروت؟ ص ٢٠٠ - ٢٠٢) (الأحكام الشخصية للأسرة

الإسلامية؟ زكريا البري؟ القاهرة).

إذا اعتبر الولد مسلماً وربى وفق الشرع الإسلامي وأنكر إسلامه بعد وصوله سن البلوغ؟ يقتل قتل المرتد عند مالك وابن حنبل والشيعة وبعض الشافعية. إن اعتبر اللقيط مسلماً لا يجوز تسليمه لدمي من أجل الحضانة. وإذا اختلف مسلم مع ذمي في نسب

اللقيط فيعود الولد للمسلم.

التعليم:

يجوز للذميين أن يعلموا أولادهم وأتباع دينهم عقائدهم الدينية؟ غير أن الفقهاء اختلفوا فيما يجوز لهم تعليم الديانة الإسلامية. لقد أباح أبو حنيفة بالإشارة إلى القرآن (١٦: ١٢٥) بينما يحرم مالك على المسلمين حتى تعليم اللغة العربية لأهل الذمة.

حرية الدين والعبادة:

اتفق الفقهاء بأن لأهل الذمة حق القيام بواجباتهم الدينية والعبادية بشرط ألا يغادروا معابدهم من أجل العبادة؟ ولا يثيروا شكوكاً في شوكة الإسلام. لكن الصعوبة في تعيين المقصود من هذه العبارة الغامضة (أي إثارة الشك في شوكة الإسلام) أدت إلى خلافات عديدة بين الفقهاء؟ الذين منعوا تارة دق النواقيس بتاتا وجوزوه تارة أخرى؟ أو إذا رخصوا به اختلفوا في المواعيد. ما يتصل بالقداس الديني فهناك اتفاق بين الفقهاء على

أنه لا تجوز الصلاة لأموات المشركين (٨٤ : ٩). إذا تعلق الأمر بوفاة امرأة مسلم وهي حامل فهنا خلاف طويل؟ يقول البعض بجواز دفنها في مقبرة للمسلمين؟ والبعض الآخر بوجوب دفنها في مقبرة النصارى. هنا أريد أن أذكر طرفاً من الآراء الطريفة التي ينقلها إلينا الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) في كتابه أحكام أهل الذمة: الكافرة تموت وفي بطنها طفل مسلم:

قال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول في امرأة نصرانية حملت من مسلم فماتت وفي بطنها حمل من مسلم؟ فقال: يروى عن واثلة: تدفن بين مقابر المسلمين والنصارى. وقال حنبل في موضع آخر: قلت: فإن ماتت وفي بطنها ولد منه؟ أين ترى أن تدفن؟ قال: قد قالوا: تدفن في حجرة من قبور المسلمين. قال أبو داود: سألت أحمد عن النصرانية تموت حبلى من مسلم؟ قال: فيها ثلاثة أقاويل؟ وقال: أرى أن تدفن ناحية من قبور المسلمين؟ لو كانت مقبرة على حدة! قلت ما الذي تختار؟ فذكر قوله هذا. وقال إسحاق بن منصور: قلت لأبي عبد الله: المرأة النصرانية إذا حملت من المسلم فماتت حاملاً؟ قال: حديث واثلة. وقال الفضل بن زياد: سمعت أحمد. وسئل عن المرأة النصرانية تموت وفي بطنها ولد مسلم؟ قال: فيها ثلاثة أقاويل: يقال تدفن في مقبرة المسلمين؟ ويقال في مقابر النصارى. قال الفضل بن زياد: وقال أبو الحارث: قال سمرة: تدفن ما بين مقابر المسلمين والنصارى قيل له: فما ترى؟ قال: لو كان لهؤلاء مقابر على حدة ما كان أحسنه! قال الخلال: أخطأ أبو الحارث في قوله: سمرة؟ إنما هو

وائلة. وقال أبو طالب:
سألت أحمد عن أم ولد نصرانية في بطنها ولد مسلم؟ قال. تدفن في ناحية؟ ولا تكون مع
النصارى لمكان ولدها؟ ولا مع المسلمين فتؤذيهم. وقال المروزي: سألت أبا عبد الله عن
النصرانية؟ يكون في بطنها المسلم؟ فتبسم وقال: ما أحسن أن تدفن بين مقبرتين! يعني
مقابر المسلمين والنصارى. قال المروزي: وكأن كلام أبي عبد الله أنه لا يرى بأساً أن
تدفن في مقابر المسلمين (من أجل) الذي في بطنها. وسئل أيضاً: ما تقول في النصرانية
تموت وفي بطنها ولد مسلم أين تدفن؟ قال: فيها ثلاثة أقاويل؟ عن عمر: تدفن مع
المسلمين؟ وعن وائلة: تدفن بين مقابر المسلمين والنصارى؟ وذكر آخر أنها تدفن مع
النصارى. قال: أعجب إلى أن تدفن بينهما. قلت: فإن لم يوجد إلا مقابر المسلمين؟
فتبسم ولم يكرهه.

قلت: أما أثر وائلة فقال ابن أبي شيبه: حدثنا جعفر بن عون عن ابن جريج عن سليمان بن
موسى عن وائلة بن الأسقع في امرأة نصرانية؟ في بطنها ولد من مسلم؟ قال: تدفن في
مقبرة بين مقابر المسلمين والنصارى. وأما أثر عمر فقال: حدثنا سفيان بن عيينة عن
عمر قال: ماتت امرأة بالشام وفي بطنها ولد من مسلم وهي نصرانية؟ فأمر عمر أن تدفن
مع المسلمين من أجل ولدها. قالوا: ويكون ظهرها إلى القبلة على يسارها؟ لأن وجه
الجنين إلى ظهر أمه؟ فيكون حينئذ وجهه إلى القبلة على جنبه الأيمن. قال أبو عبد
الله بن حمدان في رعايته: دفنت منفردة كالمرتد.
قلت: ووجه هذا أنه لم يثبت له حكم الدين الذي انتقل إليه من التوارث والموالاة؟
ودفعه إلى الكفار يتولونه؟ وقد

زال حكم الدين الذي كان عليه؟ فيدفن وحده. ولأصحاب الشافعي في الذميمة تموت وفي بطنها ولد مسلم أربعة أوجه أصحها ما ذكرناه؟ والثاني: تدفن في مقابر المسلمين. قال أصحاب هذا الوجه: وتكون للولد بمنزلة صندوق مودع فيه؟

والثالث: تدفن في مقابر أهل دينها؟ لأن الحمل لا حكم له يثبت أحكام الدنيا من غسله والصلاة عليه وغيرها؟ فلم يثبت له شيء من أحكام أموات المسلمين؟ فتفرد بهذا الحكم وحده؟ والرابع: أنها تدفن في طرف مقابر المسلمين.

الوضع القانوني للمعابد في الفقه:

على ما يبدو هناك اتفاق بين الفقهاء على الوضع القانوني للمعابد. يمكننا أن نختصر الأحكام المتفق عليها كما يلي:

١ - لا يجوز بناء معابد للذميين في المواضع الإسلامية أو المحيط المجاور لها. الرخصة في هذا المجال تمنح فقط كحالة استثنائية إذا تأكد الإمام أن بناء الكنائس والمعابد اليهودية تخدم مصلحة المسلمين.

٢ - يجوز تعمیر وتعديل المعابد المتضررة؟ وإعادة بناء الكنائس والمعابد المتهدمة عند مالك والشافعي وأبي حنيفة؟ غير أنه يشترط أن تتواجد تلك المعابد في موضع عقد معه عهد الصلح.

٣ - أما الحنابلة وبعض الشافعية فيذهبون إلى أنه لا يجوز بناء المعابد ولا الصوامع؟ ولا يجوز ترميم ما انهدم منها في بلاد المسلمين. ويرجع أبو حنيفة الحكم في ذلك إلى عمر بن الخطاب (كتاب الخراج ص ١٢٧:؟ القاهرة ١٩٣٤).
قضايا الزواج:

إن زواجا تم حسب الشرع المعترف به للديانة يقبل في الإسلام أو يسامح. وإذا وجد مانع لعقد الزواج مثل القرابة أو عدم حضور الشهود فليس

للزواج حكم لدى الشافعي وأبي يوسف والشيباني؟ إذا استحكم عند القاضي. وأما الطلاق فيجوز تطبيق ما يقول به الشرع الإسلامي بين الذميين. أن جواز الطلاق يمكن في إباحة مناكحاتهم حسب الفقهاء والدليل هو رجم رسول الله يهوديين زنيا؟ فلو كانت أنكحتهم فاسدة لم يرجعها؟ لأن النكاح الفاسد لا يحصن الزوج (حقوق أهل الذمة ابن قيم الجوزية ص: ٣٠٩).

إذا أسلمت زوجة الذمي وهي ما تزال تحتها؟ وكانت حاملا في الوقت ذاته حقت لها النفقة حتى تضع طفلها؟ فإن أرضعته كان لها أجر الرضاع؟ وإذا أسلم أحد الوالدين اعتبر الأولاد الذين دون الحلم مسلمين. ولا يوافق الشافعي على ما يذهب إليه البعض من أن الأولاد الذين يولدون قبل إسلام أبويهم يبقون على غير الإسلام حتى يقفوا على أسرار الدين فيعتنقونه من تلقاء ذاتهم. وإذا أسلمت زوجة الذمي بعد دخوله بها فلها المهر كاملا غير منقوص. أما إذا كان إسلامها قبل أن يدخل بها الذمي تقاسمته وإياه مناصفة. ويحتم الشافعي على الذمية التي تزوج مسلما أن تراعي بعض شروط الإسلام كالوضوء وإلا جردت زوجها من حقوقه (أو جردت من حقوق زوجها). وإذا طلق المسلم زوجته

النصرانية ثلاث مرات؟ ثم تزوجت نصرانيا؟ ثم طلقها ذلك النصراني؟ حل للمسلم الزواج منها مرة أخرى بعد انقضاء عدتها. وإذا أسلمت جارية النصراني حيل بينها وبينه وأعتقت عند موته. أما إذا أسلمت زوجة النصراني وزوجها غائب في سفر طويل؟ فلها أن تنتظر عودته لعله يسلم هو الآخر؟ أو تتزوج غيره أن أحببت! لو زوج الكافر ابنه الصغير أكثر من أربع نسوة ثم أسلم الزوج

والزوجات؟ لم يكن له الاختيار قبل بلوغه؟ فإنه لا حكم لقوله. وليس لأبيه الاختيار لأن ذلك حق يتعلق بالشهوة؟ فلا يقوم غيره مقامه فيه. وتحبس عليه الزوجات إلى أن يبلغ فيختار حينئذ؟ وعليه نفقتهن إلى أن يختار. هكذا قال أصحابنا والشافعية. أما ابن قيم الجوزية فيرد على هذا الحكم الغريب: وهو في غاية الاشكال؟ فإنه ليس في الإسلام مسلم تحته عشر نسوة مسلمات يبقى نكاحهن عدة سنين. وفي ذلك إضرار بالزوجات في هذه المدة بحيث تبقى

المرأة ممنوعة من الزوج عدة سنين؟ محبوسة على صبي لا تدري أن يختارها أم يفارقها؟ وفي ذلك إضرار عظيم بها. وهو منتف شرعا. فيضيف: إن قياس المذهب (أي مذهب الحنابلة) أن يختار عنه وليه كما لو كان مجنوناً! (حقوق أهل الذمة ص ٣٧٣).

قانون العقوبات:

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى؟ فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف بإحسان ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (البقرة ١٧٨). إن مسلماً قتل ذمياً يقتل عند أبي حنيفة والنووي. فهما يبرهنان على صحة قولهما بأن الآية تأمرنا بالعدل بين الناس دون النظر إلى الاختلاف في الدين. ما دام عقد الذمة معهم جارياً لا يجوز تعجيزهم فكيف بقتلهم! وما نقل عن عمر يفيد بأنه عاقب مسلماً اعتدى على ذمي. بينما ذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى عدم جواز القصاص بالمسلم؟ بحجة أن الذمي ليس مثل المسلم. غير أن المسلم إذا قتل ذمياً أو مستأماً بخدعة يقتل به عند ابن

تيمية ومالك والشافعي. إذ الصعوبة في هذا الأمر سببها وجود حديثين مرويين عن محمد. أحدهما يقول: من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة وأن ريحها ليوجد في مسيرة أربعين عاما أو لا يحل دم أمرء مسلم إلا بثلاث؟ زنا بعد إحصان؟ وكفر بعد إيمان وقتل نفس بغير نفس والآخر: لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده. إزالة لهذا التناقص قال بعض الفقهاء إن المراد من الحديث الثاني هو الكافر الحربي. إذا قتل مسلم وذمي معا ذميا آخر يقتل الذمي فقط عند الشافعي ومالك وابن حنبل. وإن ذمي قتل مسلما أو ذميا يقتل؟ وإذا اهتدى إلى الإسلام لا يقتل إن لم يطلب دمه من ذوي القتل. إن دية الذمي موضوع خلاف بين الفقهاء؟ يقول الأحناف بأنها مثل دية المسلم ويحتجون لما روي عن الخلفاء. أما المذاهب الثلاثة فتقول بأن للذمي القتل نصف دية المسلم.

ملابس أهل الذمة:

حدد عمر بن الخطاب أنواع الملابس وطريقة ركوب أهل الذمة فاشترط عليهم لبس الزنار؟

ونهاهم عن التشبيه بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم ونعالهم؟ وأمرهم أن يجعلوا في أوساطهم زنارات وأن تكون قلائسهم مضرية؟ وأمر عمر بمنع نساء أهل الذمة من ركوب الرحائل.

فكتب إلى عدى بن أرطأة عامله على العراق: مروا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمام ويلبسوا الأكيسة.

تحدث أبو يوسف عن لباس أهل الذمة وزيهم فقال: لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في

لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته. واعتمد أبو يوسف في تفسير ذلك على قول عمر بن الخطاب: حتى يعرف زيهم من زي المسلمين!
ولاية الذمي على المسلم:

لا

يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير (آل عمران ٢٨).
يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يأتونكم خبالا. ودوا ما عنتم. قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم (آل عمران ١١٨؟ ١١٩). يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين. أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا (النساء ١٤٤). يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق.. (الممتحنة ١). ويقول صاحب صبح الأعشى حديثا ضعيفا: إن اليهود والنصارى أهل غدرة وخيانة. هذه الآيات وأمثالها تحذر المسلمين من مصادقة الكافرين وتصنفهم بأنهم قوم لا يوثق بهم. وهناك أحاديث عديدة تقول إن اليهود والمسيحيين يتحايلون على الإسلام والمسلمين؟ مما جعل الفقهاء يتفقون على أنه لا يجوز للذميين أن يتقلدوا وظائف عالية في جهاز الحكم؟ لأن طاعتهم للحكم الإسلامي موضع شك. وإن مكانة الذمي المنحطة أيضا

لا تتلاءم مع ما للدوائر الحكومية من خطورة وأهمية بالنسبة للمسلمين. وعليه فلا يجوز أن يصير الذمي قاضيا ولا كاتباً ولا مترجماً.
يوجد أيضا فقهاء أمثال الماوردي الذين ذهبوا إلى جواز توليتهم في السلطة مثل الوزارات ولكن شريطة أن تنحصر واجباتهم على مرجع التنفيذ وليس الحكم والقضاء؟ فالذي يتولى التنفيذ يجوز أن يكون ذميا أو عبدا؟ دون أن يحسم

فيما يتعلق بالواجبات

الشرعية مثل جمع الزكاة.

أما ما يتصل بالقضاء فلا يصح تقليد غير المسلم القضاء على المسلمين. وعللوا ذلك بأن القضاء من باب الولاية؟ بل هو أعظم الولايات. وغير المسلم ليس له أهلية لأدنى الولايات وهي الشهادة على المسلمين. فبالأولى لا يكون له أهلية لأعلاها. وبهذا صرح الفقهاء من مختلف المذاهب كالحنفية والشافعية والشيعة الإمامية والزيدية والظاهرية. اختلف الفقهاء في جواز تولية غير المسلم القضاء على غير المسلمين. ويمكن إجمال أقوالهم على النحو التالي: صرحت الشافعية بعدم جواز تقليد غير المسلم القضاء على غير المسلمين (المحلى ج ٩ ص ٣٦٣ مغني المحتاج ج ٤ ص ٣٧٥).

وهو مذهب المالكية والحنابلة والشيعة الإمامية أيضا؟ لأنهم قالوا بعدم جواز شهادة غير المسلم على المسلم. قال الأحناف يجوز تقليد الكافر القضاء؟ وإن لم يصح قضاؤه على المسلم حال كفره. وقالوا أيضا يجوز أن يولى الذمي القضاء على أهل الذمة؟ وكونه قاضيا خاصا بهم لا يقدر في ولايته؟ ولا يضر كما لا يضر تخصيص القاضي المسلم

بجماعة معينة من المسلمين (شرح العناية ج ٥ ص ٤٩٩).

الخدمة العسكرية:

الخدمة العسكرية أو الجندية هي خدمة من ينتمي إلى الديانة التي تشكل أسس الدولة الإسلامية؟ فهي على هذا الأساس واجب المسلمين؟ وعليهم يترتب الدفاع عن الدولة. فبالدرجة الأولى إنها واجبهم وحقهم. أما الذمي فلا يشترك لا في الخدمة العسكرية ولا في واجب الدفاع عن البلاد إلا من خلال ما يدفعه من ضرائب مثل الجزية والخراج. لقد ذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل إلى أن واجب الدفاع عن

الإسلام بقوة السلاح يقتصر
على المسلمين دون غيرهم. والشافعي يرى اشتراك أهل الذمة في الخدمة العسكرية جائزا
إن كانوا ممن يكون للإسلام ميلا بالغا؟ أو إن كان بجيش المسلمين وهن فاحتاج
إليهم. إلا أنه لا يجوز استخدام الذميين في قتال العصاة المسلمين كيلا يظهروا على
المسلمين. أما أبو حنيفة فلا يرى أي مانع في توظيفهم وإدماجهم في جيش المسلمين
كاملا وإرسالهم في قتال الأعداء؟ سواء كانوا مسلمين أو غيرهم.
اتفق الفقهاء على أنه لا ينبغي للذميين الاشتراك في الغنيمة؟ حتى وإن كانوا ممن
قاموا بواجب الجهاد في جيش المسلمين!
أما الدوائر الحكومية الأخرى فشأنها شأن الوزارات والسلطات العليا. يجوز استخدام
الموظفين الذميين؟ ما عدا الجيش وجهاز الاستخبارات. لأنها وظيفة تتطلب إصدار قرارات
وتعيين أحكام لا يجوز للذمي أن يتولاها. أما الوظائف التي تتوقف على التنفيذ
والإجراء؟ فللذمي أن يتقلدها مهما كان علوها!
فيما يتعلق بالشرطة هناك آراء مختلفة؟ ويرى أغلب الكتاب المعاصرين توظيف الذمي في
جهاز الشرطة جائزا؟ ولكنهم يشترطون على المسؤولين المسلمين ألا يخولوهم ما من
شأنه الحسم في قضايا المسلمين. فلا يجوز لهم أن يعالجوا قضايا تهم المسلمين
والذميين في آن واحد؟ كما لا يجوز مثلا استخدام رجال أمن ذميين لتفريق مظاهرة قام
بها المسلمون؟ ولا في حل صراع وقع بين المسلمين والنصارى. هذا ما يقول به البعض
من
الشافعية والمالكية والحنبلية.
التسامح في الإسلام
إن تعامل الشريعة مع الكافرين الحربيين خارج الدولة؟ والذميين ضمن الحكم الإسلامي؟
يمكن

أن يوصف بتسامح نسبي؟ وعدم تسامح نسبي! إن أول ما يجب علينا القول هو عدم المساواة بين المسلمين وأهل الذمة؟ ليس لأهل الذمة نفس حقوق المسلمين؟ ولا الواجبات نفسها التي على المسلمين القيام بها. ليس أهل الذمة والمسلمون متساويين أمام القانون أيضا. إن الذمي بالرغم من أنه ليس بعديم الحقوق والحرية؟ إلا أنه يعيش في دولة دستورها الشريعة الإسلامية مواطننا من الطبقة الثانية. من الممكن أن نتحدث عن مساواة نسبية للذمي فيما يتعلق بالمعاملات؟ وحرية الدين؟ إذ تطلب الشريعة الإسلامية العدل لغير المسلمين. ولكن العدل هذا لا يعني بتاتا المساواة؟ لأن المبدأ الذي يطبع الواقع المعاش بطابعه هو أن الإسلام يسيطر ولا يسيطر عليه! فعلى الإسلام إظهار عزته؟ والمسلم يجب ان يعترف له بالأولوية والأفضلية مما يؤدي بطبيعة الحال إلى أن هذا المزج من التسامح والاحتقار ليس بمقرر فقط في النص نفسه؟ بل أظهر نفسه مرارا في التاريخ. والواقع لا يقدم للأسف ما يناقض التاريخ؟ أعني تاريخ النصارى واليهود. والأصل في ذلك هو استبداد الإسلام بالحق المطلق؟ وادعاؤه أنه جاء بعد اليهودية والنصرانية؟ أي الطور النهائي للدين الحق! إن البشر - يهودا ونصارى - مشركون وملحدون؟ مدعوون إليه. وامتناع الأفراد عن قبوله واعتناقه لا يعذر! هذا من جهة. ومن جهة أخرى يرى الإسلام نفسه أهلا للسيطرة الكاملة على الإنسان الفرد والمجتمع قاطبة دون غيره. فهو وحدة لا يجوز تفريقها (أي وحدة الدين والدولة) كما يقول المسلمون الأصوليون.

عندما تختلط المصالح الدينية من جهة

والاجتماعية والسياسية من جهة أخرى؟ تملي الدولة على الدين اتباع وجهة تخدم مصالحه. ولكن بإمكاننا أن نرى أن الدين أيضا قد يوافق على إجراءات الدولة؟ بل اعتداءاتها على الأجانب واتباع الأديان الأخرى. فالدولة التي تتظاهر وكأنها تمثل مصالح الدين وتدافع عنها؟ قد تكلف نفسها في الوقت نفسه بمطاردة ومعاقبة أي انحراف عن جادة هذا الدين كتهديد اجتماعي وسياسي لكيانها. الشريعة الإسلامية

نشأتها؟ محتواها والمذاهب الأربعة

الذي يريد أن يدرس الشريعة الإسلامية عليه أن يكون مستعدا لفهم مفاهيم مثل الشريعة؟ والشرعي؟ والحلال والحرام كما تستعمل في العالم الإسلامي. إن الشريعة الإسلامية تغطي على جميع مجالات الحياة كمنهاج حقوقي؟ ولكنها لم تطبق حتى الآن في العالم الإسلامي إلا بشكل جزئي. إذا نعني بالشريعة نظاما حقوقيا يعالج ما يمت للحياة الإنسانية بصلة؟ من تنظيف الأسنان إلى أحكام الصلاة. وهذا النظام القانوني هو الذي يحلم به كثيرون.

إن الشريعة تعني في اللغة الطريق إلى مورد الماء. وهي الطريق الواضح الذي يجب سلوكه؟ والذي يجب على المؤمنين أن يتبعوه. أما كمصطلح فالقانون المعترف به في الإسلام وهو جملة أحكام الله. إن الإسلام يختلف عن المسيحية اختلافا كاملا بكونه دين شريعة تريد أن تسيطر على حياة البشر وتراقبها. فهي قانون ودستور للدولة؟ والمرجع الوحيد في القضايا الدينية للفرد؟ وقاض إلهي للأمة. رغم أن الشريعة تتناول أيضا المواضيع الأخلاقية؟ إلا أنها ليست نظاما قانونيا يبحث عن الأسباب والدوافع الذاتية؟ بل تسجل وتملي

العلاقات الظاهرية والواجبات تجاه الله والفرد. إن تقييم الأعمال فقط يعتبر من أهم مبادئ الشريعة الإسلامية. وأما النية التي تطلب في أغلب الواجبات الدينية؟ فهي لا تهم الشرع الإسلامي الذي يطلب الأمة بالقيام بالواجب والامتناع عن الحرام.

إن الإسلام دين يحيط بالحياة اليومية للمرء؟ سواء تعلق الأمر بالواجبات الدينية أو الأمور الدنيوية. فالشريعة إذا هي العنصر الجوهرى لدين كهذا! إنها دستور الله الذي \ بينى على الكتاب الموحى به من لدنه. أما الكتاب الذي أوحى به الله نفسه فليس بمقدور الذهن البشرى تحليله أو التسرب في أعماقه.

إن قبول القرآن والاعتراف بالشريعة لا يتطلب تفكيراً جدلياً. بل يجب على المرء التسليم بها بدون تردد وتوقف؟ رغم ما يبدو هنالك من تناقضات. إن عجز العقل البشرى عن فهم تلك التناقضات دليل على مصدرها الإلهى. فالشريعة باختصار هي المصطلح الأكثر

إحاطة؟ الذي قصد به منذ البداية أن يكون نظاماً يحكم حياة الفرد. وهنا تختلف الشريعة عن السنة النبوية التي يجب أن تتبع هي الأخرى. إلا أن العلماء يقولون إن للأحاديث مصدراً بشرياً بينما القرآن مصدره إلهى فقط. إن السنة تهدي المسلم إلى سلوك يرضى الله وينال به شفاعته نبيه. إلا أن النبي نفسه يبقى إنساناً عليه اتباع الشريعة مثل أي إنسان.

- اتبع ما يوحى إليك من ربك (الأحزاب ٢).

- ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون (الجاثية ١٨).

- اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون

(الأعراف ٣٠).

- أما الشارع فهو الله نفسه: شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك .. (الشورى ١٣).

نريد أن ندرس موضوع الشريعة تحت الأبواب التالية:

١ - مصادر الشريعة

٢ - بنية الشريعة ومحتواها

٣ - تقييم الأعمال وأهداف الشريعة أو المصالح

٤ - المذاهب الأربعة وحركات الإصلاح الحديثة في العالم الإسلامي

١ - مصادر الشريعة

إن الفقه الإسلامي مؤسس على أربعة أعمدة؟ توجد بجانبها مقاييس أخرى نراها فيما بعد.

إن أهم مصدر للتشريع الإسلامي هو القرآن الذي يطبع المراجع الثلاثة الباقية بطابعه.

هذه المراجع أو المصادر الثلاثة هي حسب الأهمية:

١ - السنة.

٢ - الإجماع: اتفاق أكثرية العلماء الموثوق بهم في عهد معين.

٣ - القياس: استنباط الحكم بالاعتماد على ما صدر في قضية شبيهه.

أولا الكتاب: إن القرآن عند الفقهاء والمتكلمين كتاب أوحى به وأملي من قبل الله؟

ويجيب عن كل سؤال سواء كان يتعلق بأمر العقيدة أو الحياة اليومية للمسلم. ونزلنا

عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين (النمل ٨٩). ما فرطنا في

الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون (الأنعام ٣٨). إن الفقهاء يفسرون معنى القرآن ب

كلام الله الذي أنزل على محمد بن عبد الله ونقل إلينا من الرواة الثقة بالتواتر

دون تحريف ولا تصحيف؟ ويبدأ بالفاتحة وينتهي بسورة الناس. يروى أن الحكمة في عدم

نزول القرآن دفعة واحدة كون الرسول أمينا. وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن

جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك وتقول عائشة: إن أول ما نزل من القرآن على الجنة

والنار. وبعد أن ثبت الله أفئدة المؤمنين فصل الله الحرام من الحلال. ولو حرم الله الخمر بادئ بدء لما امتنع الناس عن شربها. إن لأغلب الآيات ما يسمى بسبب النزول (أسباب النزول). أي أن تلك الآيات نزلت بمناسبة حادث حدث أو سؤال وجه. وهناك أعمال عديدة بشأن هذا الموضوع تحت عنوان أسباب النزول.

القرآن يتكون من ١١٤ سورة مرتبة حسب طول السور؟ وعدد آياتها ٦٢٠٠ آية. إن المدة التي تلقى محمد خلالها الوحي من الله استغرقت عشرين سنة. بما أن السور تعالج عادة مواضيع لها علاقة وثيقة بأحداث زمنية معينة؟ قسمت أي القرآن إلى آيات مكية وآيات مدنية. إن القسم الأول كما يفهم من عنوانه: يحتوي على ما نزل أثناء وجود محمد في مكة. وأما القسم الثاني فنعني به الآيات التي تلقاها محمد بعد الهجرة إلى المدينة. إن نسبة الآيات المدنية التي تعالج قضايا فقهية ٨٠% من بين مجموع الآيات الفقهية. (حوالي ٥٠٠ آية).

إن مبدأ هاماً يجب الانتباه إليه في فهم القرآن وتطبيق آياته وهو النسخ. يقول الفقهاء بالإجماع إن القرآن ينسخ بعضه بعضاً أي يلغي حكمه. هذا الحقل في الفقه الإسلامي لا يخلو من الإشكالات والتناقضات. أما المشكلة الأساسية فهي تعيين الآيات المنسوخة.

٢ - السنة

إن السنة في اللغة الطريق الذي يجب اتباعه أو نمط حياة أو معاملة. أما في المصطلح فهي ما أثر عن النبي من قول وفعل وإقرار؟ أو هي فعله وقوله وتقريره. والأخذ بالسنة يمكن أن يقال له بوجه من الوجوه: التقليد المحمدي. فقط أقلية ضئيلة في الأمة الإسلامية تجرأت على رفض

السنة كمرجع ديني. إن ما يميز القرآن (المرجع الأول للشريعة) من المرجع الثاني (السنة) هو أن السنة لا يجوز أن تراجع في الفقه ما دام القرآن يحوي الحكم.

إن السنة القولية (أقوال محمد المروية إلينا) تتفاوت درجة صحتها حسب كيفية الرواية والرواة. لأن أغلبها رويت عن محمد شفويا ولم تقيد إلا في الجيل الثالث بعد محمد. عدد الصحابة الذين أكثروا من نقل أقوال النبي سبعة؟ وهم يدعون المكثرون أهمهم أبو هريرة الذي روى عن محمد مما يقارب ٥٤٠٠ حديثا. وللسنة في المسائل الفقهية أهمية كبرى لأن القرآن لا يمكنه حل المشكلات الفقهية لاختصاره الشديد؟ فتلعب السنة دور المتمم له.

٣ - القياس

إن القياس (شأنه شأن الاجتهاد) استنباط حكم في مسألة فقهية بشرح وتأويل المصادر. ويقصد بالقياس في الفقه تطبيق حكم لمسألة سابقة على مسألة حديثة لها علة شبيهة بالأولى؟ أو هو نقل حكم الأصل إلى الفرع. أما مراجعة القياس فتتم فقط إذا عجز الفقهاء عن حل المسألة بواسطة النص (أي القرآن والسنة) لأن المبدأ الفقهي يمنع أي تأمل نظري إن كان القرآن أو الحديث قد قضى بالحكم. لهذا السبب نرى أن مجال التطبيق

للقياس لا يحيط بالقانون الجنائي أو كتاب الحد؟ لأن الحدود تحتاج إلى دليل قطعي بينما القياس يعتبر دليلا ظنيا.

بدأ المسلمون بعد وفاة محمد بحملة الفتوحات فاختلطوا بثقافات أجنبية؟ ما وسع آفاق التفكير لدى العرب. إن المسائل التي طرأت من جراء هذا التحول التاريخي جعلت وجود مبدأ جديد ضروريا: الاجتهاد؟ وهو مصدر مشروع ما دام يخدم مصلحة الدين ولم يتعد عن

أهداف الشرع الشريف. أما في اللغة فهو بذل الجهد. أما في المصطلح فهو أن يبذل الفقيه الذي توفرت لديه الشروط اللازمة جهدا من أجل استنباط حكم شرعي عن مبادئ القرآن الأساسية؟ مما يعني أن هذا المرجع المشروع للفقه مؤسس على العقل ويعكس رأي الفقيه نفسه. إن معظم المسلمين يذهبون اليوم إلى أن باب الاجتهاد منذ القرن الثالث عشر أو الرابع عشر مسدود لعدم وجود فقهاء قادرين على ذلك.

٤ - الإجماع:

الإجماع في الفقه هو اتفاق الفقهاء على شرعية حكم معين في زمن واحد. يجوز أن يتم الإجماع قولاً أو تقريراً (الإجماع السكوتي). إن سكوت الفقهاء الآخرين على إجماع معروف في كل مكان يعتبر قبولا واعترافاً بالقضاء. أول ما أجمع عليه فقهاء الأمة هو خلافة أبي بكر! حاول الفقهاء الإتيان بحجج من الحديث تعليلاً لجواز استعماله في القضايا الفقهية؟ منها: لا تجتمع أمتي على ضلالة (ابن ماجه) فما رأى المسلمون حسناً فهو حسن عند الله (مسند أحمد بن حنبل).

إلى الآن درسنا المصادر الأربعة الأصلية التي تدعى في المصطلح الأدلة الأصلية. ما عدا المراجع الأربعة هذه توجد الأدلة الفرعية التي يصل عددها عند بعض الفقهاء إلى ١٧. أهم تلك المراجع الفرعية العرف والعادة في البلدان المفتوحة. إنها جعلت الشريعة طوال التاريخ ذات مرونة؟ وساهمت في نفس الوقت في ترخيص وتثبيت عناصر محلية

للبلدان المفتوحة ضمن الشريعة الإسلامية. إن تلك العادات والأعراف لا تتوافق أحياناً والشرع الإسلامي بغنى عن الذكر. يقول الأحناف إن ما يحله العرف حلال في الشرع! يرى الفقهاء أنه من

واجب العلماء النظر في العادات الطارئة والأعراف الجديدة
واتخاذ موقف منها حسب المكان والعقلية!

حتى الآن تناولنا مصادر الشريعة؟ ولكن كما يتضح من المرجع الثالث والرابع أن
الشريعة قائمة فقهية (قانونية) لها تقليد عريق. إنها دعيت في عهدها الأول علم
الكتاب مما يدل على أن المسلمين لم يعتمدوا في المسائل الفقهية إلا على القرآن. ومن
هنا فإن كلمة الفقه لم تكن تعني حينذاك سوى فهم أو فقه الكتاب. فالفقه إذا علم
الإسلام. ومن أجل ذلك يجب على طالب كلية الشريعة أن يدرس الفقه دراسة وافية. أما
في المصطلح فالفقه هو معرفة الأحكام العملية المقررة في الشرع بأصولها (أو بأدلتها).
والعلم الذي يعالج طريقة استنباط الأحكام من الأصول الأصلية والفرعية يسمى أصول
الفقه.

يقول الباحثون المسلمون إن الفقه مر بخمس مراحل في تاريخه:

- ١ - عهد الوحي: اعتمد التشريع في هذا العهد على الكتاب والسنة.
- ٢ - عهد الصحابة: بدأ المسلمون يعتبرون اجماع وأداء الصحابة مصادر للشريعة. تم

جمع

القرآن وحاول البعض تحرير أقوال النبي.

- ٣ - عهد التابعين: لوحظت الخلافات الأولى بين المسلمين وتأثيرات قوية لعادات البلدان
المفتوحة على الشريعة مما أدى إلى ظهور الاجتهاد كمرجع تشريعي؟ وازدهار أحاديث
موضوعة.

- ٤ - أما العهد ما بين ٧١٨ و ٩٦٠ بعد المسيح فيدعى عهد الأئمة والمجتهدين الكبار.
هؤلاء اهتموا بتفسير القرآن ووجوه قراءته. وتم تحرير ما روي عن محمد ونسب إليه
وطورت أصول الفقه وأساليب الاجتهاد. نشاهد في هذا العهد خلافات عميقة وآراء
متضاربة

بين

الفقهاء في المسائل الفرعية والتي يمكن تفسيرها كظاهرة رافقت تأسيس المذاهب الفقهية. أهم الكتب للفقهاء الإسلاميين ألفت في هذا العهد.

٥ - العهد الأخير: يدعى أيضا عهد الحمود. كل بلد كان مهتما بحل مشاكله. وشرح ما ألفه السابقون كان شغل الفقهاء الشاغل. كان الفقه الإسلامي منذ عدة قرون جامدا وبعيدا عن قضايا العصر الحديث. إلا أننا يمكن أن نتحدث عن يقظة إسلامية في هذا المجال أيضا منذ الخمسينات لهذا القرن.

٢ - بنية الشريعة ومحتواها

بالرغم من وجود عناصر دخيلة من مختلف أنظمة الحقوق؟ بإمكاننا أن نصف الشريعة كنظام

حقوق إسلامي. إن ما يميز الفقه الإسلامي من الحقوق الرومانية والفكرة الأوربية للحقوق هو أن يحتوي الفقه الإسلامي وصايا دينية مفصلة مثل تعيين أوقات الصلاة وطريقة الوضوء وعواقب التقصير في تلك الواجبات؟ مما لا يمكن تصوره في الحقوق الرومانية. ولكن هنا نرى القرابة الوثيقة بين الشريعة والدستور اليهودي التقليدي. إن الشريعة تلزم المسلم بواجبات فقهية وعبادية وأخلاقية في نفس الوقت. يتناول أبو حنيفة (٧٦٧ - ٦٩٩) قضايا الفقه في ثلاثة أصناف: الفقه العقائدي والفقه العملي (فقه المعاملات) والفقه المعنوي. هذا أول رسم لبناء الفقه الذي بناه الفقهاء فيما بعد أمثال الشافعي والإمام مالك إلى أن أخذ شكله النهائي. فهو يتكون حسب طوره الأخير من خمسة أقسام:

١ - الاعتقادات

٢ - الأخلاق

٣ - العبادات

٤ - المعاملات

٥ - العقوبات

إن القسم الأول والثاني أي الاعتقادات والأخلاق صاروا مع الوقت فرعين مستقلين. فنرى

الاعتقادات ضمن الكلام؟ والأخلاق فرعاً للفلسفة الإسلامية. غير أنه من الصعب جداً تحديد حدود واضحة تفصل هذه الأقسام بعضها عن بعض. خلافاً لما نراه في المصادر الأولى. توصف الشريعة في القرون الثلاثة الأخيرة كقانون مكون من ثلاثة أقسام: العبادات والمعاملات والعقوبات. أما العبادات فتتشكل مما يسمى بأعمدة الإسلام الخمسة: الصلاة والزكاة والصوم والحج والشهادة. عدد كبير من أهل السنة يعدون الجهاد أيضاً ضمن هذه الأعمدة.

أما القسم الثاني أي المعاملات فيحوي كتاب العقود وكتاب النكاح وكتاب الفرائض وكتاب

الوصايا وكتاب السير وكتاب البيوع. وكتاب العبيد أيضاً كان موضوع الفقه الإسلامي سابقاً.

أما الحقل الأخير (العقوبات) فيتناول في كتاب الحدود وتقرير الأحكام المتعلقة بالجنايات والجرائم. إن القياس حد السرقة والزنا والقذف وأحكام المرتد هي أهم المواضيع التي تهتم كتاب العقوبات.

الواجبات العبادية: نريد أن ندرس هذا القسم بشكل مفصل؟ لأن قبول الإسلام يتوقف عليه:

١ - الشهادة: يتم الإقرار بالإسلام بتكرار الشهادة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

٢ - الصلاة: هي الصلاة المفروضة التي تؤدي في أوقاتها الخمسة.

٣ - الزكاة: هي تبرع المسلم من ربحه السنوي الصافي وتشكل اثنين ونصف بالمائة يقول الفقهاء إن الزكاة تزيد ثروة المرء وتركيه.

٤ - الصوم: هو إمساك المسلم طوال شهر رمضان (الشهر التاسع للعام الهلالي الإسلامي) من الشرب والطعام والعلاقة الجنسية وقت النهار (ما دامت الشمس تشرق).

٥ - الحج: كل مسلم مكلف بحج البيت مرة في

حياته إذا مكنه وضعه الاقتصادي من ذلك.
على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا (آل عمران ٩٧).
إن مسلما تخلى عن أداء الواجبات الأساسية الوارد ذكرها أعلاه يبقى مسلما؟ ما لم ينكر ما أقر به في شهادته. فهو في هذه الحالة ليس بمؤمن. أما الذي ينكر وجود تلك الواجبات أو يستخف بها فيعتبر تارك الإسلام
الزواج في الإسلام

لكي نتيين من ملامح الشريعة أكثر؟ أريد أن أنقل إليكم ما يكتب الإمام عبد الله الموصلي في مؤلفه الاختيار لتعليق المختار. إن المثال الأول من كتاب النكاح؟ والثاني من كتاب الديات؟ والأخير من كتاب الجهاد. هنا نص المختار عن كتاب النكاح: النكاح حالة الاعتدال سنة مؤكدة مرغوبة؟ وحالة التوقان واجب؟ وحالة الخوف من الجور مكروه؟ وركنه الإيجاب والقبول. وينعقد بلفظين ماضيين أو بلفظ أحدهما ماض والآخر مستقبل. كقوله: زوجني؟ فيقول: زوجتك. وينعقد بلفظ النكاح والتزويج والهبة والصدقة والتملك والبيع والشراء؟ ولا ينعقد نكاح المسلمين إلا بحضور رجلين أو رجل وامرأتين؟ ولا بد في الشهود من صفة الحرية والإسلام؟ ولا تشترط العدالة. وينعقد بشهادة العميان؟ وإذا تزوج مسلم ذمية بشهادة ذميين جاز؟ ولا يظهر عند جحوده. ومن جمع امرأتين إحداهما لا يحل له نكاحها صح نكاح الأخرى؟ ويجوز أن يتزوج المحرم حالة

الإحرام؟ ونكاح المتعة والنكاح المؤقت باطل.
ولا إجبار على البكر البالغة في النكاح؟ والسنة للولي أن يستأمر البكر قبل النكاح؟ ويذكر لها الزوج فيقول: إن فلانا يخطبك أو يذكرك؟ فإذا سكتت فقد رضيت.
ولو
ضحكت فهو إذن؟ ولو بكت

إن كان بغير صوت فهو رضا. ولو استأذنها غير الولي فلا بد من القول؟ وإذن الثيب بالقول؟ وينبغي أن يذكر لها الزوج بما تعرفه؟ ويجوز للولي إنكاح الصغير والصغيرة والمجنونة؟ ثم إن كان المزوج أبا أو جدا فلا خيار لهما بعد البلوغ؟ وإن زوجها غيرهما فلهما الخيار. والكفاءة تعتبر في النكاح وتعتبر في النسب. وفي الدين والتقوى؟ وفي الصنائع؟ وفي الحرية؟ وفي المال؟ ومن له أب في الإسلام أو الحرية لا يكافئ من له أبوان؟ والأبوان والأكثر سواء. وإذا تزوجت غير كفء فللولي أن يفرق بينهما؟ فإن قبض الولي المهر أو جهز به أو طالب بالنفقة فقد رضي؟ وإن سكت لا يكون رضا؟ وإن رضي أحد الأولياء فليس لغيره ممن هو في درجته أو

أسفل منه الاعتراض؟ وإن كان أقرب منه فله ذلك. والإذن في العزل لمولى الأمة؟ وإذا تزوج عبد أو أمة بغير إذن المولى ثم أعتقا نفذ النكاح؟ ولا خيار للأمة. تزوج ذمي ذمية على أن لا مهر لها أو على ميتة وذلك عندهم جائز - جاز ولا مهر لها. وإن تزوجها بغير شهود أو في عدة كافر آخر جاز إن دانوه؟ ولو أسلما أقرا عليه؟ ولو تزوجها على خمر أو خنزير ثم أسلما أو أحدهما فلها ذلك إن كانا عيينين؟ وإلا فقيمة الخمر ومهر المثل في الخنزير. وإذا أسلم المجوسي فرق بينه وبين من تزوج من محارمه؟ ولا يجوز نكاح المرتد والمرتدة؟ والولد يتبع خير الأبوين ديناً؟ والكتابي خير من المجوسي؟ وإذا أسلمت امرأة الكافر عرض عليه الإسلام: فإن أسلم فهي امرأته؟ وإلا فرق بينهما؟ وتكون الفرقة طلاقاً. وإن أسلم زوج المجوسية: فإن أسلمت؟ وإلا فرق بينهما بغير

طلاق؟ وإن كان الإسلام في دار الحرب تتوقف البينونة في المسألتين على ثلاث حيض قبل إسلام الآخر؟ وإذا خرج أحد الزوجين إلينا مسلماً وقعت البينونة بينهما؟ وكذا إن سبي أحدهما ولو سبياً معاً لم تقع؟ وإذا خرجت المرأة إلينا مهاجرة لا عدة عليها؟ وإذا ارتد أحد الزوجين وقعت الفرقة بغير طلاق؟ ثم إن كان المرتد الزوجة بعد الدخول فلها المهر؟ وقبله لا شيء لها ولا نفقة؟ وإن كان الزوج فالكمل بعده؟ والنصف قبله؟ وإن ارتدا معاً ثم أسلما معاً فهما على نكاحهما.

أما عن عقوبة الزنا فيقول الإمام: إن كان الزاني محصناً يرحم حتى الموت. ويساق إلى ساحة عرصاء. يبدأ بالرحم الشهود؟ ثم الإمام؟ ثم الناس. إن ثبت الزنا بالإقرار بشهادة الشهود بدأ الإمام الفاجر لا يرحم بل يجلد الفاجر الحر مائة جلدة والعبد خمسين؟ لا يجلد الرأس ولا الوجه ولا العورات ولا يركز على موضع دون آخر ولا تجلد المقاتل من البدن.

يساق الزاني إلى عرصاء ويجلد أولاً. ينزع من الرجل قميصه والمرأة ثيابها الغليظة كيلاً تخفف عنها الوجع. يجلد الرجل قائماً والمرأة في القعود. لا يجلد المتزوجون. يجوز أن يحفر لها إلى البطن كيلاً تنكشف عوراتها وهي تهم بالفرار. تنفى الفاجرة من الموضع.

كتاب الطلاق

الطلاق ثلاث: الأفضل والحسن والقبيح. إذا طلق الرجل امرأته وهو لم يطأها فهو الأفضل. والحسن أن يمتنع عنها مدة ثلاثة حيض متتالية. من طلقها زوجها أثناء الحيض؟ يتزوجها على أن يطلقها بعد نهايتها. إذا قال الرجل لامرأته التي وطأها: طلقتك ثلاثاً فكأنها طلقت ثلاثاً لكل حيض. يكفي أن يقول

للأمة مرتين. والطلاق نوعان:
الأول أن يقول لها: أنت مطلقة؟ أو طلقتك. والثاني طلقتك حقاً؟ أو أنت مطلقة البتة.
له الرجعة في الأولى ولا رجعة في الثاني. إن قال لها: أنت مطلقة من هنا إلى دمشق
فله الرجعة. لا رجعة له إذا قال أنت مطلقة في مكة. له أن يجامعها بعد العدة الأولى
والثانية دون موافقتها.
كتاب الديات:

وفي النفس الدية؟ وكذلك في الأنف والذكر والحشفة والعقل والشم والذوق السمع
والبصر واللسان وبعضه إذا منع الكلام والصلب إذا منع الجماع أو انقطع ماؤه أو
احدودب؟ وكذا إذا أفضاها فلم تستمسك البول؟ ومن قطع يد رجل خطأ ثم قتله قبل البرء
خطأ؟ ففيه دية واحدة. وما في البدن اثنان ففيهما الدية؟ وفي أحدهما نصف الدية؟ وما
فيه أربعة ففي أحدها ربع الدية؟ وفي كل أصبع عشر الدية وتقسم على مفاصلها؟ والكف
تبع للأصابع؟ وفي كل سن نصف عشر الدية؟ فإن قلعها فنبتت أخرى مكانها سقط
الأرش. وفي شعر الرأس إذا حلق فلم ينبت الدية؟ وكذلك اللحية والحاجبان والأهداب؟
وفي اليد إذا شلت والعين إذا ذهب ضوءها الدية؟ وفي الشارب ولحية الكوسج وثدي
الرجل؟ وذكر الخصي والعينين؟ ولسان الأخرس واليد الشلاء؟ والعين العوراء؟
والرجل العرجاء؟ والسن السوداء؟ والأصبع الزائدة؟ وعين الصبي ولسانه وذكره إذا
لم تعلم صحته حكومة عدل؟ وإذا قطع اليد من نصف الساعد ففي الكف نصف الدية؟
وفي الزائد حكومة عدل؟ ومن قطع أصبعاً فشلت أخرى؟ أو قطع يده اليمنى فشلت
اليسرى فلا قصاص.
من كتاب السير:
الجهاد فرض عين

عند الضرورة وفرض كفاية في السلم. قتال الكافرين فرض على كل رجل حر وبالغ وعاقل. إذا اعتدى العدو فهو فرض عين؟ لا العبد يحتاج إلى إذن سيده ولا المرأة رخصة رجلها. إن كان بجيش المسلمين ضعف؟ يجوز الجعل. وإذا حوصر موضع للكافرين من

المسلمين يدعون إلى الإسلام. إذا أسلموا يوقف قتالهم. وإذا أبوا فدفع الجزية لأهل الكتاب؟ وإن كانوا ممن أشركوا بالله فيما الإسلام أو القتل. لا يجوز للمسلمين التمثيل بالأعداء ولا قتل المجانين والنساء والأطفال والعمي والشيوخ ولا المقطوعة اليد اليمنى وإن حاربوا يقتلون! لا تجوز مصالحة الكافرين إن كان المسلمون قادرين على قتالهم. إن لم يكن لهم القدرة على قتال الأعداء فلهم عقد المoadعة. تقييم الأوامر والنواهي:

إن الواجبات التي تكلف الشريعة المسلم بها يختلف بعضها عن بعض من حيث الأهمية؟
مما

يدلنا على أن الإسلام ينظر إلى الخطيئة كجريمة لها أنواع عديدة وعواقب مختلفة. أريد أن أذكر ما أجمع عليه الأحناف من الأوامر والنواهي وهي ثمانية:

١ - الفرض: وهو المنصوص عليه بدليل قطعي في القرآن ودليل ظني في السنة؟ وهو اللازم قطعاً؟ مثل الصلوات والمفروضة.

٢ - الواجب: إن تقريره في أصول الشريعة ليس بواضح؟ نعني به الأوامر الغامضة في القرآن والسنة. القيام به يأتي بالجزاء ويعذب تاركه. إذا أنكر الشخص الفرض؟ يعتبر كافراً. أما منكر الواجب فهو مسلم مذنب.

٤ - السنة: نقصد بها عادة الأمور العبادية التي أتى بها محمد دون أمر من الله؟ أداها مثل الركعات الأولى لصلاة الظهر والمغرب. من أداها ينال شفاعة النبي يوم

القيامه

حسب بعض الفقهاء!

- ٥ - المستحب: نعني به واجبات قام بها محمد حينا وأهملها حينا آخر.
- ٦ - المباح: الأعمال التي لا يأتي القيام بها بمكافئة ولا التقصير فيها بعذاب.
- ٧ - المكروه: الأعمال التي لا يمكن تحريمها في الكتاب والسنة بشكل واضح لوجود أدلة

تفيد حلها. الامتناع عن مثل تلك الأعمال مستحب.

- ٨ - الحرام: وهو ضد الفرض والحلال. كل ما منعت الشريعة بدليل قطعي (من القرآن)

من

عمل أو أكل أو شرب حرام. إذا اقترف المسلم الملتزم بأحكام الشريعة حراما ما يبقى مسلما ما لم ينكر قباحة ما ارتكبه.

المصالح

والآن أريد أن أتحدث بطرف من مصالح الشريعة أو أهدافها.

كما قلت سابقا؟ يعتمد الفقه أثناء التشريع على مبادئ معينة. هناك خمسة مبادئ لدى السنة والشريعة وهذه المبادئ يجب أن تحقق من قبل الشريعة. انها:

- ١ - تأمين المصلحة: وهو الإقرار بالمصلحة ودفع المضرة. لا ينبغي إهمال النظر في مصلحة الفرد والأمة؟ ومن الحرام أن يردع الضرر بما يؤدي إلى أعظمه.
- ٢ - توزيع العدل: شرعت الواجبات لتحقيق العدل فقط. والعدل هو أساس الملك. والله يأمر

بالعدل (النحل ٩٠). يجب إعادة الحق إلى صاحبه. إن كلمة العدل ترد في القرآن ٢٠ مرة فقط؟ بينما يرد الظلم ٢٩٩ مرة.

- ٣ - عدم الحرج: ليست التكاليف في الإسلام متعذرة على المسلم. غير أن التعذر كما يقول

الفقهاء هو ما يجعل العيش شبه مستحيل.

- ٤ - تقليل التكاليف: يقول الفقهاء يجب أن تكون التكاليف في الإسلام حسب طاقة المكلف؟ فلا يطلب منه على سبيل المثال إلا اثنين ونصف بالمائة من ربحه السنوي الصافي كزكاة. وكل

شئ لم يحرمه الشرع حلال!

٥ - رعاية التدرج: إنه من نعمة الله علينا أن يمررنا على التكليف. فلم يحرم الله الخمر مثلا دفعة واحدة؟ بل عبر ثلاث مراحل لكي لا يصعب على المؤمنين تركها. يقول علي بن أبي طالب: لو حرمت الخمر في البدء لما امتنعنا عن شربها. والغاية من هذه المصالح هو تحقيق الأهداف التالية:

- ١ - حفظ النفس
- ٢ - حفظ المال
- ٣ - حفظ الدين
- ٤ - حفظ العقل
- ٥ - حفظ النسل

علينا ألا ننسى ما لهذه الأهداف من أهمية؟ فإن الأوامر والنواهي كلها يمكن تبريرها من خلالها. وهي تشبه بجهاز لا يقدم فقط الأمر والنهي؟ بل يؤهل الفرد أيضا لإصدار حكم في قضية ما. ومن هنا يجب أن يمنع أي نشاط تبشيري في البلدان الإسلامية إذ يخل التبشير بهذه الأهداف كلها. فهو يسمم النفس؟ ويمهد للاستعمار الطريق؟ ويسلب المسلمين أموالهم؟ ويهتك بالدين ومقدساته؟ ويصيب المسلمين بالشلل الروحي والجنون بواسطة أفكار غريبة ويملي عليهم بحد النسل. إذا الهدف الأخير للشريعة حفظ الأمة ونشر الإسلام الذي يؤدي في النهاية إلى تأسيس ملكوت الله في الأرض كما يفهمه المسلم. المذاهب الأربعة:

لقد تطور الفقه الإسلامي في أواسط القرن الثامن ونضج؟ حيث كان من المحتم أن يتوزع بين مذاهب مختلفة. لم يبق من الفرق العديدة والنزعات المتنوعة التي ظهرت حينذاك إلا أربعة مذاهب سنية ومدرسة شيعية. كما رأينا سابقا أن أهم الأعمال الفقهية للشريعة ألفت في هذه الحقبة الزمنية. كل ما كتب وأضاف علماء الشريعة فيما بعد كان عبارة عن الشروح والحواشي. كان لكل مدينة آنذاك

فقتهاؤها ومتكلموها؟ فنقرأ مثلاً عن فقهاء
البصرة أو علماء الكوفة. هذا يفيد أيضاً أن الخلافات الطارئة لم تنشأ فقط لفروق
حضارية أو عرقية. إن حديثاً ينسب إلى محمد مفاده: اختلاف أمتي رحمة ساهم في إراحة
الضمير دون شك. إن الصعوبات في فهم وتأويل بعض الآيات من جهة وفي تمييز صحيح
الحديث

من موضوعه لعب دوراً هاماً في حدوث تلك الانشقاقات.
أما المذاهب الأربعة فهي:

١ - الحنفية: مؤسسها أبو حنيفة (٦٩٩ - ٧٩٧).

٢ - المالكية: مؤسسها مالك بن أنس (٧١٥ - ٧٩٥).

٣ - الشافعية: مؤسسها أبو عبد الله الشافعي (٧٦٧ - ٨٢٠).

٤ - الحنبلية: مؤسسها أحمد بن حنبل (٧٨٠ - ٨٥٥).

إن أول ما أسس من هذه المذاهب هو الحنفية التي انتشرت خاصة بين الشعوب التركية
وفي

العراق. ويكثر أبو حنيفة من مراجعة القياس. يقدر بعض الفقهاء في أمانة الأحناف
لتمسكهم أحياناً بالحيل والآراء البعيدة؟ حسب زعم خصومهم عن القرآن؟ فيدعونهم
أهل الرأي.

أما المالكية فتعتمد على السنة عامة دون أن تقصر فيما يؤيد أحكامهم من الشريعة.

لقد انتشرت المالكية في المدينة المنورة والحجاز وشمال غربي أفريقيا.

يعتبر المذهب الشافعي مدرسة متممة؟ مؤسسة الإمام الشافعي يعد أول فقيه وأول من
دون في الفقه كتاباً بمنهج علمي؟ حاول فيه تحديد المجالات وحيث يجوز تطبيق
ومراجعة

الحديث؟ ورفض بشدة بعض المراجع التي اقترحها الأحناف. لقد انتشرت الشافعية في

مصر

السفلى والأردن وأندونيسيا وآسيا والوسطى وتانزانيا.

أما الحنبلية فهي ردة فعل رجعية ضد أية نظرة عقلانية تريد

أن تفسر الإسلام حسب هواها. لم يتفق الباحثون حتى الآن على شخصية الإمام أحمد بن حنبل فهو جامع الأحاديث

فقط عند البعض؟ وفقه بارز عند الآخرين. إنها مذهب اشتهر بتعصبه الغريب للإسلام والذي وصل إلى القمة لما أمروا به بتسديد غار حيرا وتخريب قبور بعض الصحابة منعا للناس من عبادة الموتى! إن الوهابية اليوم في المملكة العربية السعودية تحمل في طياتها جل المذهب الحنبلي.

الأحناف: في البلقان والقفقاس وأفغانستان وباكستان ومعظم المسلمين في الاتحاد السوفياتي والصين والهند.

المالكيون: في تونس والمغرب والجزائر ومصر العليا وموريتانيا ونيجيريا والسودان والكويت والبحرين.

الشافعية: مصر السفلى والأردن ولبنان (خاصة بيروت) واليمن والبحرين بين السنة وإندونيسيا وماليزيا وسريلانكا وفلبين وقازخستان وتانزانيا والهند وفلسطين وإيران وأقلية في المملكة العربية السعودية.

الحنابلة: في الجزيرة العربية وسورية وكأقلية في العراق ومصر والهند وأفغانستان والجزائر.

هذه المذاهب باستثناء الحنفية محافظة متمسكة بالتقليد تمسكا شديدا. إن الشافعية أكثر تعصبا وتمسكا بالنص والتقليد من المالكية. وأما الحنابلة فهم عديمو المثل في الجمود والتزمت. يمكن أن ترجع هذه الفروق بين المذاهب الفقهية في الإسلام إلى أسباب مختلفة؟ أهمها على ما أرى اثنان:

- ١ - الخلفية الثقافية لمؤسسيها والتي أثرت بلا شك في فهمهم الشريعة وشرحها.
 - ٢ - الظروف العامة في البلدان حيث انتشرت المذاهب.
- إن الشريعة التي تمكنت من السيطرة المطلقة على المجتمع؟

وقضت على الحضارة السابقة

لها في بعض البلدان؟ وجدت نفسها في بلدان أخرى مضطرة إلى الإقرار بكل التقاليد والأعراف المحلية وادماجها في كيانها.

لقد امتاز المذهب الحنفي بشبه التجاهل بالنصوص التي لا تتحاشى؟ والظروف السياسية والاجتماعية. ذلك لأن مؤسسة تاجر ومتكلم بنفس الوقت وليس فقيها بالدرجة الأولى. إن المواضيع التي تناولها أبو حنيفة في مؤلفاته تتعلق عادة بقضايا الكلام الإسلامي من صفات الله إلى السؤال عما إذا كانت تجوز تلاوة الفاتحة في الصلاة المفروضة بلغة غير العربية مما عجز المتكلمون عن حلها. بفضل سمعته الحسنة كعالم صالح؟ تلقى أبو حنيفة من حين إلى آخر مسائل فقهية عويصة وقدم حلولاً مرنة لها؟ مما أكسبه شهرة عظيمة. انتشر المذهب الحنفي بين الشعوب الأجنبية أسرع من المذاهب الأخرى بفضل طبيعته المستعدة للتسوية والتصالح. لقد أعجب الأتراك وقسم من الصينيين بهذا المذهب؟ لأن هذه الشعوب لم يكن لها عهد بآله إلا كالذي يتواجد في السماء كخالق الكون دون أن يتدخل في ما يحدث في الأرض. إن قادتهم كانوا في الحقيقة آلهتهم. فبذلك صارت الحنفية

عند السلاجقة أولاً وآل عثمان أخيراً المذهب الرسمي للدولة؟ وصرحت ابتداء من القرن ١٩ أن أعلى هدف تصبو إليه الشريعة ليس تأسيس النظام الإلهي؟ بل تأكيد وتقوية سلطنة السلاطين كظل الله في الأرض. فكان على العلماء الاحتجاج بالقرآن والسنة تبريراً لمنع السلطان من تطبيق حد السرقة وتسويغ قتل الإخوة من القرآن نفسه. إذ ورد في كتاب الله إن الفتنة أشد من القتل (البقرة ١٩٢). بالإضافة

إلى ذلك لم يكن الفقيه لدى الأحناف بحاجة إلى دليل قطعي لكل قضية حقوقية. وقد نسب إلى أبي حنيفة القول: إن أحكام الشريعة محدودة؟ بينما المسائل الفقهية لا تعد! بخلاف المذاهب الثلاثة الأخرى نرى في مراجع الأحناف آراء لا تمت لروح القرآن بصلة. فتقرأ في ملتقى الأبحر الذي ألف في القرن ١٧ حكماً يقول إن المسلم يقتل بالذمي؟ أي أن مسلماً قتل ذمياً في دولة إسلامية يقتص منه. تقول المذاهب الأخرى خلافاً للحنفية إن المسلم في حال كهذا يعاقب فقط! يدعي المصدر نفسه تبريراً لتحريم عقوبة الحد للسرقة بأنه من الضروري النظر في مصلحة الإمبراطورية؟ ولا ينبغي أن ننسى أن السرقة في الجزيرة العربية لم تكن لتقتلع جذورها إلا بعقوبة كهذه. يعالج المذهب الحنفي شؤون الإدارة والحكم أكثر من الأمور العبادية؟ مما جعله مذهباً يصلح لأن يكون دين الدولة.

أما المذهب الشافعي فيجب اعتباره حالة استثنائية؟ لأنه انتشر بين العرب وغيرهم من الشعوب. إن كان المذهب الحنفي امتاز بتأويله للأوامر والنواهي القرآنية على حساب القرآن والسنة؟ والاهتمام بالشؤون الدنيوية أكثر من القضايا العبادية؟ فنرى الشافعية على العكس تقر بأصول الشرع دون تلاعب بها وتبتعد عن المسائل الإدارية. فهي فيما يتصل بالمسائل العبادية أكثر حزمًا واستقامة؟ ويعود الفضل في انتشارها في الشرق الأوسط عامة؟ وبين السنيين في العراق خاصة؟ إلى الحقد الدفين في قلوب المسلمين على الحكم العثماني ومذهبه الحنفي. أما في بلدان الشرق الأقصى فقد انتشر المذهب الشافعي بفضل نشاطهم التبشيري. يمكن أن نفهم

الوجود الشافعي في لبنان
والبحرين كردة فعل أصولية للسنة على الشيعة الأصولية. فعدم الاستعداد لأي شكل من
التصالح نقطة شبه بين هاتين المدرستين. المشابهة الأخرى كامنة في أن الدستور
الفقهي للشافعية والذي أسس من قبل الشافعي نفسه انتقل إلى يومنا هذا دون تغيير
كما هو الحال لدى الشيعة. إن الشافعي كان من أهل الحديث (النقيض من أهل الرأي)
ولم
يميز الأحاديث الصحيحة من الموضوعة. فأضعف احتمال أن لفظة ما في حديث مروى
عن النبي

قد تكون صادرة منه؟ كان سببا كافيا عند الشافعي للتحذير من إنكاره! ومن مزاياه
الهامة أيضا رفضه المطلق للاجتهاد.

لقد ولد المذهبان الباقيان: المالكية والحنبلية في المدينة أي مهد الإسلام، ولم
يستطيعا البقاء إلا في البلدان العربية. لذلك يراهما بعض الفقهاء والباحثين مذهبي
العرب. الإمام مالك بن أنس وأحمد بن حنبل يعتبران من جماع الحديث؟ فنرى كتاب
المعاملات في كتب هذين المذهبين فوضويا بسبب ما يحوي من تناقضات. أما القسم
الأول

في مصادرهما الفقهية فيتناول فقط الأحكام العبادية؟ والقسم الثاني ينحصر في حل
النزاعات بين القبائل ومعاقبتها.

حركات الإصلاح في الإسلام
يبدو تاريخ الإسلام الحديث للكثيرين مرآة صادقة للتأثير الغربي في المجتمع
الإسلامي. لقد اعتبر معظم المسلمين الشريعة كيانا جامدا وأصيب من الغرب بضرية
قاتلة؟ أو نظام حقوق لا يمكن أن يواصل حياته إلا بتلقيحات من الغرب. كان الإسلام قد
تعرض منذ البدء لتحديات دينية وثقافية. ولكن كان باستطاعته الوقوف بوجهها

بنجاح؟

فهناك عديد من الآيات القرآنية التي لم تكن ليوحى بها لو لم يتلق محمد اعتراضات من الجانبيين النصراني واليهودي. وابتداء من القرن الثامن حتى القرن العاشر اختبر الإسلام أزمات حضارية متعددة؟ أهمها تلك التي أحدثتها الأفكار الإغريقية. غير أن الإسلام أظهر القدرة الكافية على مواجهة تلك التهديدات. فتارة رفضها؟ وتارة اعترف بها بعد أن ألبسها حلة إسلامية؟ أو أدمجها كاملا في كيانه. لكن الوضع تغير لما وجد الإسلام نفسه في القرن التاسع عشر وخاصة في القرن العشرين تحت الضغط والتأثير الغربيين. كان التأثير الغربي ذا وجهين: سياسيا وعسكريا. إن الانزعاج أو النكسة التي ظهرت من جراء الهزائم السياسية العسكرية وما تلاها من تبعية للقوى الأجنبية؟ أصابت الإسلام بالشلل وأثارت الانطباع بأن الإسلام لا يستطيع تجديد نفسه ولا صد المواجهات.

يمكن أن نختصر ملامح حركات الإصلاح المشتركة في القرنين التاسع عشر والعشرين في الاقتناع بالانحطاط الداخلي؟ ومكافحة الخرافات؟ وتصفية الإسلام منها والتنبيه على القيم المعنوية والأخلاقية. إن قادة تلك الحركات الإصلاحية (وهم بمثابة السلف للأصوليين المعاصرين) كانوا على يقين بأن عودة الأمة إلى القرآن وتعاليمه البسيطة الواضحة هي الحل الوحيد؟ الذي لا خلاص بغيره. نصادف في القرن التاسع عشر نزعات مختلفة بين قادة الفكر الإسلامي؟ كل فرقة لها وصفتها لحل المسائل. فيرى التقليديون وعلى رأسهم شيخ الإسلام أو قاضي القضاة للحكم العثماني أن الخلاص يتم فقط بالتمسك بما به اهتم السلف الصالح؟ إذ هم أقرب

الناس من عهد النبوة؟ وليس بوسعنا أن نفهم القرآن كما فهموه. والصوفية تذهب إلى أن على المسلم أن ينجو بنفسه بعيدا عن السياسة وشؤونها؟ وعلى رأسها الشاذلية والنقشبندية. أما قادة الإصلاح أمثال جمال الدين الأفغاني فلا يقيمون وزنا لأعمال السلف؟ وها هو الأفغاني يغضب عندما يقتبس في مجلسه ما يقول القاضي عياض حجة؟ وكأن ما كتبه وحي منزل فيقول: يا سبحان الله! إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه وناسب زمانه؟ فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب إلى الحق وأوجه؟ وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الأئمة؟ وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا وأدلوا دلوهم في الدلاء وفي ذلك البحر المحيط من العلم؟ وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم - وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان. ولما قيل له: إن ذلك يحتاج إلى الاجتهاد؟ وباب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه! تنفس الصعداء وقال: ما معنى باب الاجتهاد مسدود؟ وبأي نص سد باب الاجتهاد؟ أو أي إمام قال: لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه في القرآن؟ أو أن يهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث...

أما الصعوبة الثانية فنراها في ما يجب على المسلم عمله تجاه شؤون السياسة. فهل الإسلام دين لا يهتم إلا بالأمور العبادية؟ وهل القرآن كتاب لا يحوي سوى توجيهات أخلاقية وليس له صلة بالحكومة؟ وصف قادة الإصلاح الخلاف بينهم وبين أهل التزمتم بالصراع بين العقل والنقل واتهموا غيرهم بالتمسك الأعمى بنص

القرآن. وهناك من يقول؟

وخاصة في أيامنا هذه بضرورة فهم القرآن فهما يتناسب والعصر. هذا كفر مستور عند الأصوليين. والذي يقول به واحد من اثنين: إما أبله لا عهد له بالقرآن؟ أو مرء يطعن في الإسلام في كسوة المصلح. ربما يحق للأصوليين القول بأن هؤلاء المسلمين المنفتحين الذين عندما يتحدثون عن وجوب تكيف القرآن بمتطلبات العصر لا يابهون بدعائم الإسلام أبدا؟ فلا أمكنهم إظهار كفرهم لما ينتظر المرتد من عقاب إلا بتميع وتجويف القرآن من خلال تفسيرات غريبة كل الغرابة وذلك تحت شعار الانفتاح والإسلام العصري.

القادة الأوائل لحركات الإصلاح

إن أول مصلح دعا الأمة الإسلامية إلى الرفع بمستواها الحضاري والروحي في مواجهة السياسة التوسعية للغرب المستعمر هو جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧) رغم أنه لم

يهدف بتاتا إلى تحديث نظري للإسلام بمعنى تخطي الأصل. لقد رأى أن من واجبه الأساسي

الاعتناء بنظام التدريس؟ وطالب بإدخال العلوم الحديثة في البرامج المدرسية؟ كما أشار إلى ما للفلسفة من أهمية كمادة للتدريس. ودافع بقوة وهو يجادل علماء الشريعة المقلدين عن العلوم الحديثة والعقل قائلًا إن العقل وكل ما يصدر عنه يلائم مبادئ الإسلام الأساسية. أو نراه يقول إن على المرء يعتني بتربية خصاله الحسنة ويحب الناس ويخدمهم بتفان.

تبنى المصلح المصري محمد عبده هذا المزج من الأحكام القرآنية عن الأخلاق والنزعة الإنسانية الحديثة وأعطاه طابعا معاصرا. وقام العالم الهندي سيد علي خان أيضا بتمثيل الأفكار نفسها: إن لم نتخل عن هذا التقليد

البعيوض ولم نسع إلى استضاءة
أنفسنا وغيرنا من القرآن والسنة فقط؟ فليس للإسلام في الهند مستقبل.
كان سيد علي خان متأثراً بالتفسير الحديث إلى حد بعيد؟ حيث حاول أن يجد لكل
اختراع

في عالم العلم آية في القرآن تخبرنا بذلك؟ مما جلب انتقاد المسلمين الشديد. هذه
النزعة الغربية التي تبحث عن وصفة مفصلة في القرآن لكل ما استجد في ميدان العلوم
تجد حتى في أيامنا هذه أتباعاً لها. أظن أن عدم وجود معجزات أو خوارق للعادة في
حياة النبي محمد هو السبب الأساسي لهذا التحري الدؤوب. فإن الأخبار التي تنسب إلى
محمد والتي تنقل لنا ما تم على يديه من معجزات مشكوك في أمرها؟ والأحاديث بهذا
الشأن أغلبها ضعيفة وموضوعة.

أما عميد كلية الأزهر السابق الشيخ محمد عبده فتجراً وقال إن الإسلام لا يناقض
العقل؟ ما لم يتجاوزا حدودهما! فهو كان أكثر واقعيًا من علي خان. لقد قوبلت آراء
عبده المنفتحة بل الثورية في مجال الشريعة والتي أوردتها في دروسه ومجالسه بأسلوب
لين وبترحاب؟ ووجدت أتباعاً لها بين المثقفين. وليس من المشجع أن نرى أن ما
كان من الممكن في أوائل العشرينات من هذا القرن؟ قد يستحيل علينا اليوم ونحن على
عتبة القرن الحادي والعشرين!